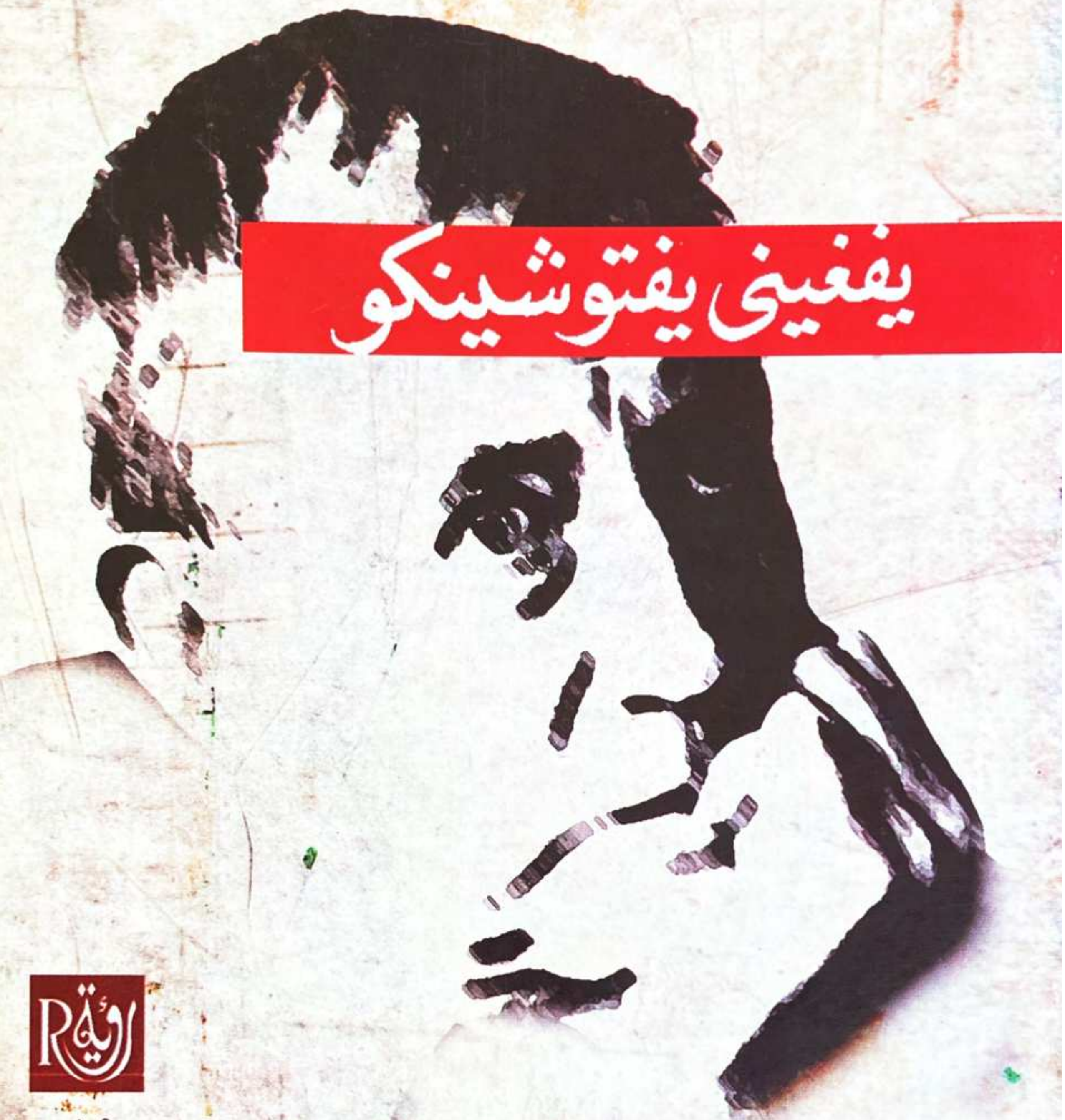

يفغيني يفتوشينكو

العمق الرمادي

سيرة ذاتية مبكرة

ترجمة وتقديم

إدريس الملياني

العُمْقُ الرَّمَاديُّ

(سيرة ذاتيَّة مبكِّرة)

يفغيني يفتوشينكو

العُمْقُ الرماديُّ

(سيرة ذاتيَّة مبكِّرَة)

ترجمة وتقديم

إدريس الملياني

للنشر والتوزيع

2015

رؤية
للنشر والتوزيع

2015

عنوان الكتاب : **العُمْقُ الرَّمَاديُّ**

(سيرة ذاتيَّة مبكِّرَة)

اسم الكاتب : **يفغيني يفتوشينكو**

ترجمة : **إدريس الملياني**

المدير المسؤول : **رضا عوض**

رؤية للنشر والتوزيع

القاهرة : 0122/3529628

8 ش البطل أحمد عبد العزيز – عابدين

تقاطع ش شريف مع رشدي

Email: Roueya@hotmail.com

فاكس : 25754123 (202) +

هاتف : 23953150 (202) +

الإخراج الداخلي : **حسين جبيل**

جمع وتنفيذ : **القسم الفني بالدار**

الطبعة الأولى : 2015

رقم الإيداع : 2015/4099

الترقيم الدولي : 978-977-499-158-1

انهيار جبل الجليد

1

يفغيني يفتوشينكو: ليس غريبًا عن المشهد العربي.

فهو معروف لدى القارئ سماعًا على الأقل كأحد أهم شعراء روسيا الكبار ومن ألمع شعراء العالم المعاصرين. ترجمت أشعاره إلى لغات كثيرة واستمعت إليه جماهير غفيرة أثناء تجواله في خارطة العالم والشعر وتناقلت آراءه وكالات الأنباء باعتباره شاعرًا كبيرًا وذا جرأة على الجهر بما كان مسكوتًا عنه في مجتمعه الاشتراكي، إلى حد أنه قدم في الغرب بصورة، مخالفة لوجهه الحقيقي، أنكرها هو نفسه: «يريدون أن يجعلوا مني شخصية مستقلة منفصلة فيما يبدو كبقعة مضيئة عن العمق الرمادي للمجتمع السوفييتي». واستطاع فعلاً، كشاعر

متفرد ومتمرد، أن يحافظ على «شخصية خاصة» وأن يُعَبِّرَ في الوقت ذاته «عما هو مشترك بين جميع الناس» و «أن ينقل في قصائده أنفاس الآخرين» ولكن «دون أن ينفي أناه» في الحياة كما في الكتابة.

وبذلك أحيا في ذاكرة الناس صورة سلفه ماياكوفسكي بقامته الشعرية المديدة والعملاقة، ونظرته الثورية الحادة والشزراء، وقدرته الفنية المذهلة على تحدِّي الذوق العام المتخم بالبالي من التقاليد التي تكبح جماح القصيدة العنيدة عن الانطلاق في سهوب الإبداع الخلاق التي ليس لها تخوم. ولذلك كذلك، عد يفتوشينكو، عن جدارة واستحقاق، في وقت من الأوقات على الأقل، الصوت الجديد والعنيد، في عموم الاتحاد السوفييتي والعالم، والذي لو قيل عنه إنه ملأ الدنيا وشغل الناس لما كان في ذلك أدنى مجازفة أو تهويل.

ولم يحلِّق في سماء الشعر وحدها بل له جولات وصولات في السجال النقدي والصحافي والنزال الثقافي والنضال السياسي كثيرًا ما كانت تثير زوبعة من الجدل الذي لا يهدأ له أوار. ودخل أيضًا إلى أضواء الشاشة الكبيرة كنجم سينمائي وكان على وشك أن يصير نجمًا رياضيًا في كرة القدم كحارس مرمى..

ومن المؤسف، حقًا، أن تسبقه شهرته إلى الوطن العربي ولا تعرف أشعاره مترجمة إلى اللغة العربية إلا عام 1970، حيث صدرت عن المؤسسة اللبنانية للنشر مجموعة قليلة من قصائده في ديوان صغير بعنوان: «قصائد من يفتوشينكو - الصبوت الجديد في الاتحاد السوفييتي» أشرفت على ترجمتها المستشرقة إيلينا استيفانوفا وراجعها الشعراء: نزار قباني وأدونيس، وبلند الحيدري، مع مقدمة بقلم الشاعر. وقبل ذلك كانت مجلة «الهلال» قد نشرت مقتطفات مترجمة من سيرته الذاتية، خلال زيارته لمصر وأقطار عربية أخرى. وللشاعر سميح القاسم قصيدة حوارية معه حول القضية الفلسطينية..

وإلى وقت قريب زار المغرب مكتفيًا بغروبه الذهبي الجميل، وبكلام عابر في لقاء عابر حضره «جمهور» قليل جدًّا، مما جعل إحدى صحفنا الوطنية تتساءل، آسفة، عن هذه الضيافة التي لا تليق بمقام الشاعر الكبير؟ إنها غربة الشعراء تحت كل سماء..

ولا شك أنه لم يرد، على تلك الزيارة القصيرة، حين سئل عنها، بأكثر من «هزة كتف» تعبيرًا عن خيبة أمل كبيرة. لم يكن يتوقع منا طبعًا أن نقيم له حفلاً كبيرًا على غرار الحفلات الشعرية التي يحضرها الآلاف من مواطنيه بالقاعات الموسيقية

والملاعب الرياضية والمسارح الصغرى والكبرى. فالشعر وإن كان قرين الغناء، لا يحظى عندنا بالحفلات الباذخة التي تنظم في أفخم فنادقنا وأكبر ملاعبنا الرياضية على شرف أهل الطرب من السائحين الأقارب والأجانب والمطربات السائحات كذلك. لأن الشعر لا يدر، على قائله وقارئه، غير الحزن والخيبة والغربة والمرارة؟

ومع ذلك فالشاعر الروسي كان أسعد حظًّا من شاعر عربي مثل صلاح ستيتيه الذي عاش بين ظهرانينا سفيرًا لبلاده ومغمورًا كشاعر حداثي كبير ولم تشفع له حتى اللغة الفرنسية التي يكتب بها في دخول دائرة الضوء الاحتفالية..

شاعر روسي آخر، من مجايلي يفتوشينكو، ألم على ديارنا ولم يأبه به أحد، كالعديد من كبار الأدباء والشعراء الذين يمرون مر الكرام ولا يحظون حتى بمجرد خبر يطفو على ركن الجريدة..

ولا شك أنه هو الآخر اكتفى من المغرب بغروبه الذهبي الجميل.

وأثناء المهرجان العالمي للشباب، عام 1980 بموسكو، شارك أعضاء من وفدنا المغربي في لقاء ثقافي بدار اتحاد الكتاب السوفييت، وبعد انتهاء اللقاء اقترب مني ذلك الشاعر الكبير

وحياني بحرارة قائلاً: أعرفك، لقد رأيتك، في المركز الثقافي السوفييتي بالرباط، ألا تذكر؟ فصعقت وحين صحوت تذكرت صورته على ظهر غلاف أحد دواوينه الذي ترجمت إحدى قصائده القصيرة. وإذا كان اسمه لا يعني شيئًا، لقرَّائنا، فإنه لا يقل شهرة وشاعرية عن مواطنه يفتوشينكو. أحقًّا لا يحس الشاعر بغربته إلا في وطنه؟..

ذات يوم، قبل أن أشدَّ الرحال إلى موسكو للدراسة «ومصائب أخرى» اتصل بي الصديق، خالد الشاتي، الصحافي بوكالة نوفوستي للأنباء في الرباط قائلاً: إن الشاعر يفتوشينكو يطلب منك أن ترسل إليه «الترجمات» التي سمع عنها من أحد سفرائنا بأمريكا اللاتينية عندما أطلعه على رغبته في زيارة المغرب؟ فاستغربت من سفارتنا الموقرة هذه الالتفاتة الكريمة واهتمامها بشؤوننا الثقافية. ولكن، سرعان ما انقلب الاستغراب إلى فرحة طافحة بالإعجاب إذ علمت أن هذا السفير إنما هو الأديب الكبير والإعلامي الخبير الأستاذ محمد العربي المساري.

وشط المزار على قرب الديار و«تلفت القلب»: كنت في موسكو يوم زار المغرب.

ولم يُكْتَبْ لهذه «الترجمات» أن تصل إليه إلا سماعًا. ولم يسعدني الحظ، طوال إقامتي بموسكو، إلا بالاستماع، بعيدًا

عن كثب، إلى قراءته الشعرية في إحدى المناسبات بقصر المؤتمرات بالكريملين..

كان كثير التجوال عبر العالم وإيقاع الحياة في مدينته الكبيرة لا يسعف باللقاءات العابرة وكنت - مثلما قال - «أعتقد دائمًا أن أجمل اللقاءات هي التي تأتي بالمصادفة» بلا موعد وانتظار، وسأظل بانتظار الموعد..

فهل يكتب «لسيرته الذاتية» أن تصل إليه يومًا؟

2

في مطلع الستينيات وأجواء الحرب الباردة، قام الشاعر بجولة في بلدان أوروبية كألمانيا وفرنسا، قرأ شعرًا وتكلم أمام جمهور غفير يُقَدَّر بعدة آلاف من العمال والطلبة والمثقفين ومحبي الصداقة والسلام بين الشعوب. وكتب هذه: «السيرة الذاتية المبكّرة» التي صدرت في حينها مترجمة إلى اللغة الفرنسية.

ويوم عاد إلى بلاده استقبل إعلاميًّا ورسميًّا بحفاوة كبيرة، جعلت الوزير الأول للاتحاد السوفييتي «نيكيتا خروتشوف» يشيد به في خطاب رسمي بمناسبة 8 مارس 1963، قائلاً: «يجب أن نوفي الرفيق يفتوشينكو ما يستحقه من التكريم: فقد تصرَّف، خلال هذه الجولة، بشرف».

لم يحمل الرفيق يفتوشينكو يومًا بطاقة الحزب إلا عبر قصيدته: «اعتبروني شيوعيًا» ولم يكن عضوًا إلا في «حزب اللاحزبيين» كما قال في إحدى مقالاته الصادرة في صحيفة «أنباء موسكو» أيام احتدام النقاش حول «الجلاسنوست» و«البيريسترويكا» و«زعامة» جورباتشوف. ولكن الحزب نفسه كان قديمًا، على عهد خروتشوف، قد قرر في مؤتمره العشرين 1956 أن يكشف النقاب للمرة الأولى عن جرائم المرحلة الستالينية..

كانت مرحلة «ذوبان الجليد» كما يقول عنوان هذه الرواية للشاعر الروسي الشهير إيليا إهرينبورج. ولكن ليفتوشينكو رأي آخر: «إن ذوبان الجليد يمكن أن يحدث في وسط الشتاء وأن يعقبه جليد جديد وشامل» لذلك يرى «أن هذه المرحلة لا يمكن تعريفها إلا كربيع» على الرغم من أنه ربيع صعب وقارس يلفحه الشتاء برياح الليل الباردة وصقيع الصباح و«يحاول أن يؤخره أو يعوق نموه وتطوره، لكننا نحس بأن كل هذه الحملات الشتوية محكوم عليها بالعجز. إنها المعارك المؤخرة التي لم تمنع الربيع أبدًا عن التطور والنماء ولا الطقس الجميل من التفتح والإشراق. ولذلك آمنت دائمًا بهذا الربيع المناهض للستالينية».

فَمَنْ مِن الشاعرين كان على حق؟

ولأن الشعر أصدق إنباءً يقول يفتوشينكو في إحدى قصائده:

أنا لم أحرك أي ركود
لكنني فقط
سخرت من الزيف والتهويل
كتبت مقالات
ولم أكتب تقارير الوشاية
وحاولت دائمًا
أن أقول كل ما أفكر فيه..
نعم
لقد دافعت عن الموهوبين
ودفعت عديمي المواهب
المتسللين إلى صفوف الأدباء
وذلك على العموم هو الواجب
إلا أنهم يؤكدون لي جرأتي
لسوف يذكر أحفادنا

بشعور من الخجل المر

بعدما يقضون على الدناءة

ذلك الزمان الغريب

حين كان الشرف البسيط

يسمى جرأة..

هذا المقطع الشعري بالذات يختزل «سيرته الذاتية» اختزالاً دقيقًا وعميقًا. ويختزن أيضًا ما ستؤول إليه حياة «الاتحاد السوفييتي» لاحقًا..

وإذا كان يرى فيها «أن سيرة الشاعر الذاتية هي قصائده، أما ما عدا ذلك فليس سوى تعليق» فإن هذه «السيرة الذاتية المبكرة» ليست مجرد تعليق على هامش تجربته الشعرية، بل شهادات حية من فضاء الواقع الثقافي العام الذي كان يختنق بهواء الواقع السياسي الرمادي الكالح والكابح. إنها تمور بالصور التراجيدية والكوميدية: عن كفاح شعبه البطولي في تلك السنوات القاسية من الحرب الوطنية العظمى ضد الفاشية، حيث قدم عشرين مليونًا من أبنائه قربانًا على مذبح الإنسانية جمعاء ودفاعًا عن وطنه «السوفييتي» وثورته «الاشتراكية» التي لم يفقد في أعماقه الإيمان بمثلها العليا، رغم ما عاناه من كابوس المعتقلات والمظالم والجرائم والقذارات

المتكالبة عليه من كل الملل والنحل والجهات، فضلاً عما قاساه «عبر قرون تاريخية ربما أكثر من أي شعب آخر، وكان بإمكان هذه التركة الثقيلة، كما يعتقد البعض، أن تحبط روحه وتقتل فيه القدرة على الإيمان بأي شيء». ومع ذلك لم يكفر لا «بعبادة الفرد» ولا «بالعمل المؤله» بل ظل يقدم لهما «القرابين اليومية» دون أن يحظى من ستالين «حتى بمجرد الثقة؟» أو يكشف عن خداعه القناع لأنه كان شعبًا «يفضل أن يعمل على أن يحلل» حالمًا أو واهمًا ببناء المجتمع الاشتراكي، بالعرق والدموع والدماء التي امتصتها منه طغمة البيروقراطيين الدوغمائيين والانتفاعيين الكلبيين وقضاة التحقيق الجدد والقدامى..

وهي إلى ذلك سيرة الشعر الروسي، الكلاسيكي والمعاصر، منذ فجر ثورة أكتوبر حتى مطلع الستينيات، تلتقي فيها عدة أجيال من كبار الشعراء، من بوشكين وليرمونتوف إلى باسترناك وماياكوفسكي، ومن بلوك ويسينين إلى سيمونوف وتفاردوفسكي، ومن يفتوشينكو إلى روبرت روجديستفينسكي وأندري فوزنيسينسكي، ومن أنا أخماتوفا ومارينا تسفيتايفا إلى بيلا أخمادولينا - شريكته في الشعر والحياة الزوجية..

والشعراء، لدى الشعب الروسي، ليسوا مجرد شعراء بل كانوا «قادة روحيين» و«أمناء على الحقيقة». والشعب

الروسي، لدى الشعراء، ليس مجرد قراء بل هو البوصلة المرشدة إلى الحقيقة.

ومن مواطنيه هذه المرأة العاملة المنهكة القوى التي أقبلت عليه تنصحه ذات يوم بهذه الحكمة الشعبية البسيطة: «اكتب الحقيقة، يا بني، فقط الحقيقة.. ابحث عنها فيك وانقلها إلى الشعب وابحث عنها في الشعب وضعها فيك..».

وقد نقلها حقًّا وصدقًا في سيرته الذاتية وتجربته الشعرية وكتبها «مبكرًا» برقة الشاعر ودقة الناقد، بأناقة أسلوب القاص والروائي ورشاقة توضيب الفنان السينمائي، بحماسة المناضل الثوري وفراسة المواطن الشعبي البسيط وبذوق فني رفيع وإحساس مرهف نابض بذلك الدفء الحميمي والحنان الإنساني الذي يشع من مرح الأطفال وكدح الرجال (والنساء كذلك!).

وهي لا تكشف القناع عن خداع العهد الستاليني الأسود فحسب، بل تجيب أيضًا على كثير من أسئلة تلك المرحلة الربيعية القارسة والقاسية التي عرفت ذوبان الجليد، على عهد خروتشوف، وتجيب على أسئلة مماثلة تمخضت عنها مرحلة الجمود الجديد، على عهد بريجنيف، وترهص في كثير من إشراقاتها بما ستتكشف عنه الأيام كذلك من أوهام «الشفافية» و«إعادة البناء» على عهد غورباتشوف! .. أوووف! وما

سيشهده الاتحاد السوفييتي لاحقًا من انهيار شامل ... إلى حد القول دون مبالغة إن الشاعر يفتوشينكو قد «تنبأ» فيها عن وعي أو دون وعي بذلك الانهيار الشامل قبل الأوان..

وفي ذلك دليل على قدرة الشعر والشاعر الرائي والبصير المعمد بالتجربة والمهتدي ببوصلة الحكمة الشعبية الواضحة الاتجاه، على الاكتشاف والاستشراف اللذين يوحي بهما حتى عنوان ديوانيه «المبكرين»: «مستطلعو المستقبل» و«طريق المتحمسين»..

وإلى ذلك كله هذه «السيرة الذاتية المبكرة» هي سيرتنا نحن. إذ تجيب أيضًا وأيضًا على كثير من قضايانا الثقافية - السياسية التي يحبل بها ماضي أيامنا الآتية ومستقبل أحلامنا الماضية! ..

3

وغني عن البيان أن «جميع الحقوق محفوظة للمؤلـف» إلا أن الشاعر يفتوشينكو الذي تخرج من «مدرسة الحياة الـشاقة» يعرف لا محالة أن «حقوق الطبـع» لـن تعـود عليـه ولا عـلى المترجم حتى بثمن أعواد الثقاب المحترقة على تأليف أو ترجمـة هذا الكتاب! ..

ولاشك أنه لم يرد بأكثر من «هزة كتف» أيضًا تعبيرًا عـن الاعتـذار: للمستـشرقة المترجمـة والـصديقة الحميمـة لكتـاب المغرب والمـذكورة في كثـير مـن النـصوص المغربيـة الـسردية والشعرية، أولجا فلاسوفا، التي راسلتها مؤملاً تقديم المؤلف. وما إخاله إلا مؤكدًا ما قاله في المقدمة التي خص بها مجموعتـه الشعرية الصادرة بالعربية: «إنه لمن السخف والتملق أن يكتب

المؤلف بنفسه مقدمة لكتابه. إذ إن على الكتاب أن يقول كل شيء عن ذاته بذاته، وأن يسير على الأرض دون الارتكاز إلى (عكاز المقدمات) التي وإن كانت تسند المؤلف فهي تثير في الوقت ذاته عند القارئ الشك في القيمة الحقيقية لكتابه..».

ودون ارتكاز إلى عكاز المقدمة تستطيع هذه «السيرة» أن تسير وحدها على الأرض وتطرق كل قلب وتقول بنفسها كل شيء، بل تزداد قيمتها بانهيار الاتحاد (...) نفسه كالجبل الجليدي العائم!..

العمق الرمادي

إن سيرة الشاعر الذاتية هي قصائده، أما ماعدا ذلك فليس سوى تعليق.

من واجب الشاعر أن يقدم لقرائه مشاعره وأعماله وأفكاره على راحة اليد. وعليه، كي يحظى بإمكانية التعبير عن حقيقة الآخرين، أن يدفع الثمن: بالكشف عن حقيقته دونما رحمة أو شفقة.

لا يحق للشاعر أن يخادع.

ومهما حاول أن يزاوج في شخصيته - بين الإنسان الحقيقي من جهة، والإنسان الذي يُعَبِّر من جهة ثانية، فلابد أن ينتهي إلى العقم. عندما تحول رامبو إلى تاجر عبيد، كان يتصرَّف على نحو يتناقض مع مثله الشعرية، فانقطع عن

الكتابة، وكان ذلك هو الحل الشريف. للأسف، ثمة شعراء آخرون. يصر بعضهم على الكتابة، حتى عندما لا تعود حياتهم تطابق شعرهم. فينتقم الشعر منهم بالتخلي عنهم. الشعر امرأة حقود، لا تغفر الكذب، ولا ترضى حتى بنصف الحقيقة.

يتباهى بعض الناس بكونهم لم يكذبوا أبدًا، فلينظروا إلى وجوههم في المرآة، وليقولوا لنا:

ليس كم اقترفوا من أكاذيب، بل فقط كم مرة آثروا راحة الصمت.

أعرف أن هؤلاء الناس حجة، اختلقها إخوان لهم: الصمت من ذهب. أنا أرد عليهم: إن هذا الذهب لا يمكن أن يكون خالصًا. فالصمت إذن زيف.

ينطبق هذا على كافة البشر، لكنه يصدق أكثر على الشعراء، الذين عليهم أن يجسدوا حقيقة مركزية. عندما يبدأ الإنسان بالصمت عن حقيقته، لابد أن ينتهي به المطاف حتمًا إلى السكوت عن حقائق وآلام وتعاسات الآخرين. كثير من الشعراء السوفييت ظلوا لمدة طويلة يرفضون الكشف عن أفكارهم الخاصة، عن تناقضاتهم وتعقيدات مشاكلهم الشخصية، فانتهوا، بطبيعة الحال، إلى السكوت عَمَّن كانوا يحيطون بهم.

وفي فترة من الفترات، التي أعقبت الثورة، أسس الشعراء الشيوعيون جمعية «الثقافة البروليتارية» وقرروا أن يتكلموا فقط بضمير «نحن» معتقدين بسذاجة أنهم يخدمون مثلهم الأعلى. لقد كانوا يدقون بيأس طبول مواهبهم ليخنقوا منهجهم الخاص. .

أما أولئك الشعراء الذين خلفوهم، فقد كانوا يومئذٍ يكتبون بضمير المتكلم المفرد، غير أنهم كانوا يواصلون حمل عبء تلك التركة الثقيلة التي تسمى «نحن»، وبما أنهم كانوا سجناء زخارفهم، فبمجرد ما كان أحدهم يقول: «أنا أحب» حتى يتلقفها الآخرون على أنها «نحن نحب».

وفي هذه المرحلة بالذات تفنن نقاد الأدب في خلق نظرية «البطل الغنائي». على الشاعر، كما كانوا يقولون، أن يتغنى بالفضائل السامية. وعليه أن يبدو في إنتاجه، ليس كما هو في الواقع، بل كنموذج للإنسان الكامل. وقد كتب أنصار هذه النظرية في أغلب الأحيان ما كانوا يعتقدون أنه قصائد سير ذاتية. وكانت ترد فيها بالفعل أسماء مدنهم الأصلية وقائمة بأسماء البلدان التي زاروها وتفاصيل أخرى ذاتية. لكن إنتاجاتهم كانت فارغة إلى درجة يتعذر معها التمييز فيما بينها.

- بلى: أعرف جيدًا، لقد كانت لبعضهم الموهبة الكافية للتعبير بسهولة أكثر من الآخرين.

لكن فكرهم كان يفتقر إلى الأصالة. ليس الشكل الذي ترتديه طريقة التعبير هو ما يميز الأحياء، بل وحدانية الفكر. إذ لا يمكن أن توجد سيرة ذاتية، لا تعكس ما بداخل كل إنسان من تميز وتفرد. لا أريد هنا أن أتحامل على الشعر السوفييتي كله، أو أن أتهمه بتشويه «أنا» الشاعر. لقد كتب ماياكوفسكي سيرته بضمير «نحن» إلا أنه ظل هو ماياكوفسكي. كما أن «أنا» باسترناك هي تمامًا «أنا» باسترناك. من الممكن أن أذكر العديد من الشعراء الآخرين، الذين كان لهم الفضل الكبير في الحفاظ على فردانيتهم خلال هذه المرحلة الصعبة، لكن أسماءهم لا تعني الشيء الكثير للقارئ الغربي.

إن إنتاج الشاعر الحقيقي، هو الصورة الحية التي تتنفس، تمشي، وتتحدث عن عصره.

ولكنه أيضًا صورته الشخصية الدائمة والشاملة.

ومادمت أعتقد ذلك، لماذا وافقت على كتابة هذه التجربة عن سيرتي الذاتية؟

لأن القصائد تترجم بشكل رديء ولأنه، في الغرب، بدلاً من معرفة إنتاجي، تعرف بعض المقالات التي تعطي عني صورة مخالفة كثيرًا للواقع. يريدون أن يجعلوا مني شخصية مستقلة، منفصلة فيما يبدو كبقعة مضيئة عن العمق الرمادي للمجتمع السوفييتي. لكنني لست بهذا الوجه. هناك عدد كبير

من السوفييت يكرهون مثلي بحماسة كل ما أنا أناضل ضده. إن ما هو عزيز لدي، وما أناضل من أجله، عزيز أيضًا لدى عدد لا يحصى من السوفييت. أعرف أن هناك أناسًا قادرين على طبع مرحلتهم بأفكارهم الخاصة، التي يقدمونها للمجتمع كأسلحة للنضال. وذلك هو الشكل الأسمى للإبداع الفكري. للأسف، أنا لا أنتمي لهذا الصنف من المبدعين. إن ما في قصائدي من أفكار ومشاعر جديدة، كانت موجودة في المجتمع السوفييتي قبل أن أبدأ الكتابة بزمن بعيد. من المؤكد أنها لم تكن قد اتخذت بعد شكلاً شعريًّا. ولكن، لو لم أعَبِّر عنها أنا لكان قد عَبَّر عنها غيري. ستقولون إنني أتناقض من صفحة إلى أخرى، إذ بعد أن تغنيت بفردانية الشاعر التي لا تتجزأ، إذا بي أقدم نفسي كبوق للأفكار الجماعية. لكنه تناقض خاطئ.

أعتقد أنه ينبغي أن تكون للشاعر شخصية خاصة، محددة جدًّا، لكي يتمكن من التعبير في إنتاجه عما هو مشترك بين كثير من الناس. إن طموحي كشاعر لا يتعدى هذا. أريد أن أتمكن، خلال حياتي، من أن أنقل عبر قصائدي أنفاس الآخرين، دون أن أنفي «أناي». ومن جهة أخرى، أنا مقتنع بأنني يوم أفقد هذه «الأنا» سأفقد في الآن ذاته قدرتي على الكتابة.

ولكن، مَن أكون أنا؟

صمت البحر

ولدت يوم 18 يوليـو 1933 بمحطـة سـيبيرية صـغيرة ونائية، تدعى «زيما»، قرب بحيرة بايكال. عائلـة يفتوشـينكو تنحدر من أصل أوكـراني. كـان جـد أبي فلاحًـا مـن منطقـة جيتومير، وقد نُفي - كما قيل لي - لأنه «رمى الـديك الأحمـر» على سيده النبيـل. في اللغـة الروسـية الـشعبية «رمـى الـديك الأحمر» تعني ببساطة «أحرق». يبدو لي أن هذا التفسير العائلي يتضمن مفتاحًـا لانـدفاع ذاتي لا يقـاوم: كلـما التقيـت رجـلاً بعقلية نبيل إلا وأحسست برغبة ملتهبة في إحراقه..

في بيتنا، لم تلفظ كلمة ثورة أبدًا بفخامة كما في الخطابـات الرسمية. بل كنا نقولها بهدوء وحنان وبـصرامة تقريبًـا. إذ إن الثورة كانت دين عائلتي.

كان جدي إيرمولاي يفتوشينكو جنديًا بسيطًا خلال الحرب الكونية الأولى، وشبه أمي. وقد أصبح أحد أهم دعاة ومنظمي حركة الفلاحين الثورية في الأورال وسيبيريا الشرقية. بعد انتصاراتنا في الحرب الأهلية، التحق بالأكاديمية العسكرية للجيش الأحمر وتخرَّج فيها برتبة لواء، وتقلد وظيفة مهمة كقائد مساعد في سلاح مدفعية الجمهورية الروسية. إلا أنه، رغم زيه العسكري المهيب بالنياشين المعلقة على جانبي صدره، ظل فلاحًا بسيطًا مؤمنًا بالثورة إيمانًا دينيًا. في عام 1938 رأيت جدي للمرة الأخيرة. كان عمري آنئذٍ لا يتجاوز الخامسة، غير أني أذكر جيدًا لقاءنا الأخير.

كنت قد خلعت ملابسي وأويت إلى فراشي، حينما دخل إلى غرفتي، وجلس كالعادة على حافة سريري. ثم ناولني علبة شوكولاتة سائلة كان يمسك بها في يده، فرأيت كالعادة أيضًا تحت حاجبيه الكثين عينيه الماكرتين والباسمتين، وقد بدتا لي ذلك اليوم مرهقتين جدًّا. بعدما أعطاني جدي الملبسات، أخرج من جيبه زجاجة فودكا صغيرة - ربع لتر - وقال لي:

- أريد أن أشرب معك هذا المساء. الفودكا لي والملبسات السائلة لك أنت.

ثم هوى على قاع الزجاجة بضربة قوية من راحة يده، فأطار فلينتها. وأخرجت أنا قطعة شوكولاتة من العلبة.

- نخب ماذا سنشرب؟ سألته بخجل مقلدًا تعبير الكبار.

- نخب الثورة! رد عليَّ جدي بنبرة هادئة ورصينة.

وبعد ذلك تبادلنا الأنخاب، أنا بعلبة الملبس وهو بزجاجته، حتى أتينا عليهما دفعة واحدة.

- والآن، نم! أمرني جدي.

أطفأ النور، ثم عاد ليجلس على حافة السرير. لم أعد أرى وجهه، إلا أني كنت أحس بنظراته مركّزة عليَّ. وبصوت خافت بدأ يغني. ردد ألحان السجناء الحزينة، وأناشيد الإضرابات والمظاهرات العمالية، وأغاني معارك الحرب الأهلية. ثم نمت. ومنذ تلك الليلة لم أر جدي أبدًا. قالت لي أمي إنه رحل بعيدًا. ومن أين لي أن أعلم أنه، في تلك الليلة بالذات، اعتقل بتهمة الخيانة العظمى؟ ومن أين لي أن أفهم أن أمي باتت عدة ليال متتالية واقفة في الشارع، شارع «صمت البحر» وسط نساء كُنَّ يحاولن تسقط الأخبار لمعرفة إن كان آباؤهنَّ أو أزواجهنَّ أو إخوانهنَّ أو أبناؤهنَّ لا يزالون على قيد الحياة؟

كان لابد من مرور وقت طويل قبل أن أعرف كل ذلك.

ولم أعلم إلا بعد وقت طويل أيضًا سر اختفاء جدي الآخر، العالم الرياضي، رودلف غانيوس، المقوس الظهر، ذي

اللحية الجميلة البيضاء - الليتواني الأصل - الذي لا يزال لمصنفاته في الهندسة تأثير في المدارس السوفييتية. إلا أنه اعتقل - كجاسوس ليتواني..

لم أكن أعرف شيئًا من كل ذلك.

كنت أذهب مع أبي وأمي إلى التظاهرات العمالية في الساحة الحمراء وأطلب من أبي أن يرفعني عاليًا فوق كتفيه حتى أتمكن من رؤية ستالين. كنت ألوح برايتي الصغيرة الحمراء، فوق الجمهور الغفير، وأنا أتخيل أن ستالين يرد عليّ، وينظر إلي شخصيًا.

آه! كم كنت أغبط أولئك الأطفال السعداء المختارين لتقديم الزهور إلى ستالين! كان يداعبَ شعرهم برقة وهو يبتسم ابتسامته المشهورة، تحت شاربيه الشهيرين.

إنه لأمر بدائي أن تفسر عبادة شخصية ستالين بالقمع وحده. بالنسبة إليّ، لا يوجد أدنى شك في أن ستالين كان يتمتع بجاذبية آسرة. والواقع أن كثيرًا من البلاشفة القدامى، الذين اعتقلوا وعوملوا بقسوة، ظلوا مصرين على الاعتقاد أنهم عذبوا دون علم منه.

وكان كثير منهم، بعد العودة من التعذيب، يكتبون بدمائهم على جدران زنازينهم:

«عاش ستالين».

ألم يدرك الشعب الروسي إذن ضحية مَن كان؟

ألم يكن حقًّا يرى ما يحدث حوله؟

أعتقد أنه في معظمه كان يرفض مواجهة الحقيقة. كان كل واحد يحس تلقائيًّا، إلا أنه لم يرد أن يصدق همس القلب. مادام العكس سيكون أكثر تعبًا ورعبًا.

كان الشعب الروسي يفضل أن يعمل على أن يحلل.

بإصرار بطولي، قل نظيره في التاريخ، كان يشيد محطة كهربائية تلو أخرى ومصنعًا بعد آخر. كان يعمل بعناد لكي تخنق ضجة الآلات والجرارات والجرافات الصرخات والتأوهات المتسربة عبر الأسلاك الشائكة لمعسكرات الاعتقال السيبيرية. ومع ذلك كان من المستحيل تجاهل تلك الصرخات.

في كل يوم، كان يتعاظم ذلك الخطر الأكبر الذي يمكن أن يهدد شعبًا من الشعوب: الطلاق بين سلوكه ومعتقداته. وحتى نحن الأطفال، كنا نحس تلقائيًّا بذلك. فكان أجدادنا يحاولون حمايتنا من الواقع، لكن جهودهم لم تعمل إلا على تأكيد تفكك العالم المحيط بنا.

****

كان أبي وأمي شخصين مختلفين بل ومتناقضين أيضًا.

ولذلك لم أستغرب أبدًا أن تنتهي علاقتهما بالطلاق. لكن ليس لأسباب سياسية، كما أشارت بمكر مجلة «التايم» النيويوركية. التقى والداي بمعهد الجيولوجيا حيث كانا طالبين. كان ذلك في العشرينيات. كان أبناء العمال والفلاحين يتمتعون بأسبقية القبول في الجامعات. وهو رد فعل طبيعي على ظلم الحقبة القيصرية، التي كان فيها التعليم امتيازًا يحظى به الأغنياء. لكن، مثلما يحدث غالبًا أثناء توطيد العدالة، فقد اقترفت مظالم جديدة. في اللغة الروسية أُطْلِقَ على هذه الظاهرة تعريف دقيق ومجازي، تسمَّى «بيريجيب» (تقويم شيء بثنيه في الاتجاه المعاكس، المعنى قريب من المثل الشعبي: «جا يصلحها عورها» - المترجم).

في مرحلة «البيريجيب» عاش أبناء المثقفين مثل أبي حياة قاسية. كانوا بمثابة الغراب الأبيض وسط رفاقهم البروليتاريين - مراقبين ومحروسين. ذات يوم، اتهم والدي، خلال اجتماع للشبيبة الشيوعية، بميولات برجوازية، لأنه.. كان يرتدي ربطة عنق.

هذه الحكاية رواها لي والدي منذ عهد قريب، عندما رفض أحد المطاعم الموسكوفية الكبرى السماح لنا بالدخول؛ لأننا لم نكن نرتدي ربطة العنق..

لكن كل هذه المتاعب لم تمنعه من الارتباط بفتاة نحيلة، بروليتارية جدًّا، وذات مبادئ ثورية إلى حد التطرف. تلك هي أمي. كانت تحتذي دائمًا جزمة المناضلة وترتدي قميصًا روسيًّا للذكور، موشى، يسمى «كاسافاروتكا» (قميص روسي أزراره من جانب). لم تكن أمي، المنحدرة من سيبيريا، تتمتع بثقافة والدي. إلا أنها كانت تعرف ما هي الأرض وما هو العمل. وإذا كنت مدينًا لأبي بتعليمي، منذ طفولتي المبكرة، حب الكتب، فإنني مدين لأمي كذلك بتربيتي على حب الأرض والعمل. ولذلك أعتقد أنني نصف مثقف ونصف فلاح، وسأظل كذلك. ربما كانت الصفة الأولى تعوقني بالقياس إلى بعض رجال الفكر المحض، إلا أن الصفة الثانية تعوض حدودي بسخاء إذ تحميني من السقوط مثل كثير من المثقفين في «العجرفة».

لقد قرأ أبي كثيرًا. وكان على الأخص متبحرًا في التاريخ. كان يحب كثيرًا أن يروي لي وأنا طفل شبه واع، تاريخ سقوط بابل، ومحاكم التفتيش الإسبانية، وحرب «الزهرتين» وعلى الأخص حرب غيوم دورانج.

أعتقد أنه كان يرى في هذه الأحداث بذرة تلك المشكلة التي طالما أرّقته: مسألة العلاقات بين المثقفين والثورة. إلا أنني لم أكن أميل إلى غيوم دورانج. إن بطلي المفضل كان وسيظل هو تيل أولينشبيجل.

آه! كم أود لو أصير تيل أولينشبيجل في العصر الذري! بالقلب النابض بحب طبقته وكل أولئك الذين سقطوا ظلمًا في سبيل سعادة الإنسانية!

أود لو أصير تيل أولينشبيجل الذي يتجول عبر الأرض بأنشودته المحرّضة التي تحث الناس على النضال من أجل العدالة! أود أن أصير تيل أولينشبيجل الذي يحتقر قضاة التحقيق من أية صفة كانوا والذي يسخر من كل أولئك الذين لا يحلمون إلا بملء بطونهم والنوم الهادئ المريح.

إنني مدين لأبي بالجميل؛ لأنه قرأ عليَّ، منذ طفولتي المبكرة، حكايات تيل أولينشبيجل..

كان أبي يمتاز بذاكرة قوية، يحفظ عن ظهر قلب العديد من القصائد ويجيد قراءتها وإلقاءها. كان يحب كثيرًا ليرمونتوف وجوته، إدجار آلان بو وكيبلنج. كان يقرأ قصيدة «لو» لكيبلنج بحرارة جعلتني أعتقد أنه هو كاتبها. وقد كتب أبي الشعر فعلاً. ولا شك في أنه كان يتمتع بموهبة حقيقية. ولا تزال رباعية إحدى القصائد التي كتبها في سن الرابعة عشرة تثيرني برقتها ودقتها:

لكي أتخلص من الضجر

أود لو أركض

لكن النجوم عالية جدًّا

ومرتفع جدًّا ثمنها..

بفضل والدي، تعلمت القراءة والكتابة في سن السادسة، وكنت وأنا طفل في الثامنة أقرأ بلا نظام كتب خزانته: دوماس وفلوبير، وشيللر وبلزاك، ودانتي وموباسان، وتولستوي وبوكاش، وشكسبير وجايدار، ولندن وسرفانتيس، وحتى ويلز. وتصور أي خليط متناقض كان في رأسي!

لقد عشتُ في عالم من الأوهام، لا أرى شيئًا أو أحدًا من حولي. بل ولم أنتبه حتى إلى أن أبي وأمي قد افترقا من قبل. وأنهما يخفيان عني ذلك فقط.

أعراس

في 22 يونيو عام 1941 - يوم الهجوم الألماني على بلادي - كنت كطفل رومانسي أتصور أن الناس لا يتألمون إلا في الكتب.

لقد بدت لي بداية الحرب زاهية الألوان، كنت أحب أن أتطلع إلى الأضواء الكاشفة، وهي تكنس في الليل سماء موسكو. لم تكن توحي لي بالرعب بل بالمتعة والإعجاب. وكنت أحب حتى عويل صفارات الإنذار، عندما تدوي محذرة من الغارات الجوية. وكم كنت أحسد أولئك الشبان الذين يتسلمون الخوذ الجميلة والبنادق ويرحلون إلى تلك البلاد الخيالية الساحرة التي كانت تدعى الجبهة!

حقًّا، لم يكن الجرحى العائدون من تلك البلاد ثرثارين.

في خريف 1941 نقلت من موسكو إلى سيبيريا مع أطفال كثيرين في مثل سني وسافرت في قطار يتألف من حوالي

ستين عربة مكتظة بالنساء والأطفال. استغرقت الرحلة أكثر من شهر قبل أن أصل إلى محطة زيما، التي ولدت فيها.

كانت ستون عربة من الآلام والدموع، تزحف ببطء مخترقة روسيا باتجاه سيبيريا. وفي الاتجاه المعاكس كانت تسير نحو الجبهة، ناقلات محملة بالعتاد، ومن الأبواب المنفرجة لـ «تيبلوشكي» (اسم روسي يطلق على عربات المواشي المزودة بمواقد التدفئة لنقل الجنود. تيبلو: دافئ - المترجم -) كانت تطل وجوه جنود غضة. إلا أن خوذهم وبنادقهم ما عادت تتراءى لي جميلة بوجه خاص. ولم أعد أراهم مسرورين بالذهاب إلى القتال، حتى ولو كانت تتناهى إليَّ من عرباتهم أصداء الأغاني الروسية الجميلة ذات الإيقاع السريع، والأنغام المرحة التي تصدح بها آلات «الأكورديون».

ومنذئذٍ لم تعد الآلام بالنسبة إليَّ مقتصرة على شخصيات الكتب فحسب.

لكنني في زيما بالذات عشت مشهدًا من أروع المشاهد التي أثرت فيَّ وطبعتني مدى الحياة: حفلات زفاف عام 1941. كانت عملية تعبئة الشباب تجري على قدم وساق. يومان للوداع ثم الرحيل إلى الجبهة.

كان «جديريان» يتأمل موسكو بمنظاره، ولم يكن ليقف في طريقه شيء سوى أجساد هؤلاء الفتيان السيبيريين. كانت حظوظهم في العودة إلى قراهم منعدمة عمليًا، ومع ذلك كان لهؤلاء الفتيان حياتهم، غرامياتهم، وخطيباتهم. وكان هناك بالفعل فتيات كثيرات يقبلن أن يصبحن أرامل بعد أن يتزوجن بمن أحببن لمدة يوم واحد.

وقد شاركت في كثير من هذه الأعراس، التي كانت فيها ليلة الزفاف هي الأولى والأخيرة. إذ كنت في الثامنة طفلاً كبيرًا، موهوبًا في الرقص بل ومسليًا على ما يظهر. ولذلك ظللت «نجمًا» أتنقل بين الأعراس، أرقص فيها لقاء كسرة خبز أو قرص بطاطس رقصات روسية تفيض مرحًا وحيوية. هذه التجربة رسمتها في قصيدتي: «عرس». وما زالت حتى اليوم تتبادر إلى ذهني، كلما فكرت في الحرب.

تلك الذكرى بالنسبة إليَّ ذات تأثير أقوى من أجمل الخطابات حول ضرورة النضال من أجل السلم. إن كلمة «السلم» ليس لها مدلول ملموس - في نظري - إلا لأولئك الذين يعرفون هول الحرب. كذلك، إذا كنت مدينًا للحرب بشيء، فلأنها بالضبط علمتني ما معنى كلمة «السلم».

وهنالك أمر آخر: لأنها جعلتني أدرك ما معنى الوطن. إذ تعلمت، خلال الحرب، أن الوطن ليس مجرد اصطلاح جغرافي أو أدبي، بل هو صورة الناس الأحياء.

إنني أحتقر النزعة القومية. فالعالم كله بالنسبة إليَّ لا يتكون إلا من أمتين فقط: أمة الناس الطيبين، وأمة الناس الأشرار. وأنا مواطن من الأمة العالمية للناس الطيبين. لكن حب الإنسانية يمر عبر حب الوطن.

هل يمكن القول إن روسيا انتصرت في الحرب بسبب تعلق أبنائها بالوطن فقط؟ كلا، لا أظن ذلك. ليس لهذا السبب فحسب. كما قلت سابقًا، إن الشعب الروسي قد عاش، قبل الحرب، مهددًا بخطر ازدواجية حياته. ومع ذلك، لم يفقد في أعماق نفسه الإيمان بمثل الثورة. ورغم كابوس المعتقلات الستالينية، هبَّ للدفاع ليس عن وطنه فحسب ولكن عن ثورته بالأساس.

وليس من قبيل المصادفة أن يكتب شاعر، كميخائيل كولتشيسكي - والذي سيسقط شهيدًا بالجبهة في سن العشرين - يقول مستشعرًا الحرب قبل اندلاعها:

هي ذي منذ الآن في الضباب الكثيف

أفواج سرايا جديدة تتقدم

والشيوعية تقترب من جديد

كما في العام التاسع عشر.

إنه لمن المؤلم الاعتراف بهذا، ولكن من وجهة النظر الروحية، فإن حياة الشعب الروسي كانت أيسر خلال الحرب؛ لأنه كان أصدق. وهنا بالذات يكمن أحد الأسباب الرئيسة لانتصارنا في الحرب.

***

لقد كرسنا جميعًا جهودنا من أجل النصر، كبارًا وصغارًا: الجنود والعمال، الفلاحون والمثقفون. أنا أيضًا حاولت أن أفعل مثلهم، اشتغلت في الحصاد، وفي منشرة، وجمعت أعشابًا طبية لمعالجة الجرحى.

وبدأت الكتابة أيضًا نثرًا في البداية. وأثناء تلك المرحلة كان الحصول على الورق صعبًا. كان ثمن الدفتر المدرسي يساوي كيلوجرامًا من الزبدة. وفي المدرسة كان التلاميذ يكتبون درس الإملاء بين سطور الصحف المليئة بالبلاغات العسكرية. أذكر أني اختلست من جدتي مجلدين من أعمال ماركس وإنجلز، وخلال عام ملأت المساحات غير المطبوعة. لقد حاولت كتابة رواية. وعندما اكتشفت جدتي الأمر غفرت لي. داعبت رأسي قائلة:

«الآن، ستظل طوال حياتك ماركسيًّا مقتنعًا». يبدو لي أن جدتي لم تخطئ.

لم أكن قد كتبت الشعر بعد. غير أني كنت أسجل بعناية بعض الأغاني الشعبية التي لا أهمية لها في الظاهر، لكني كنت أجمعها بسبب خوف لا شعوري من أن تضيع كل هذه الكنوز الشعبية ذات يوم من ذاكرة الناس.

وعبر هذه الأغاني الطافحة بالاستعارات والأمثال اكتشفت جمال اللغة الروسية المتنوع الجوانب. ذلك لأن اللغة الروسية ظلت صافية في غابات التايغا السيبيرية، المحمية بجبال الأورال. إن اللغة كالثلج: في المدينة، يتلوث دائمًا بالغبار ودخان المصانع، أما في الحقول والغابة فإنه يظل أبيض تمامًا. وتلك الأغاني التي جمعتها كانت تفوح منها رائحة التايغا. ودون أن أشعر، بدأت أكتب أشعارًا من النوع الفولكلوري. كنت أود أن تكون لها هي أيضًا رائحة التايغا.

في الوقت الراهن كثيرًا ما أسأل عن أستاذي في الشعر. أولاً وقبل كل شيء: كانت التايغا. كانت تعجبني لأنها صارمة وأبية، بشكل ما، باطنيًّا. كل الذين يأتون إليها على مضض يجدونها دائمًا بغيضة وكريهة. أما الذين يأتون إليها بقلب مفتوح فإنهم يجدونها طيبة ورقيقة بصورة وديعة وخجولة.

يبدو لي دائمًا أنه من باب الشتيمة إهانة التايغا وإفقارها بتكسير ولو أصغر غصن من أشجارها دون داع. ورغم أني لست نباتيًّا على الإطلاق، أعتبر من الوحشية إبادة كثير من الحيوانات، والطيور، التي لم تسئ إلى الإنسان بأي شيء.

أذكر أن أعمامي، ذات يوم من أيام الشتاء، عادوا مساء من التايغا إلى البيت. شربوا بصخب طوال الليل وغنوا بأصواتهم الجشاء أغانٍ طويلة، طويلة كأنهار روسية. ثم أطفأوا النور واستغرقوا في نوم عميق. وبينما كنت أتسلل في الليل إلى مدخل البيت لأشرب الماء، اصطدمت بشيء يئن أنينا خافتًا وغريبًا. فجست في الظلام باحثًا عن علبة كبريت، وعلى ضوئها المترنح، رأيت أيلين، مستلقيين على ظهرهما، وقوائمهما مرفوعة نحو السقف، كأنهما متحجران بالبرد السيبيري (40 درجة تحت الصفر في الخارج). كانت عيونهما الواسعة ترنو إليَّ بنظرة إنسانية تمامًا، كأنهما يطلبان شيئًا. جثوت على ركبتي وشرعت أمسدهما بيدي، وأدفئهما بأنفاسي. لكن شيئًا من ذلك لم يغن فتيلاً. وفيما أنا أنظر إلى أحدهما لاحظت بقعة دم صغيرة فوق غرته الشبيهة بجبين طفل. فطفقت أبكي بدموع ساخنة، وأنا أحضن الأيلين الميتين.

استيقظ أعمامي وجروني نحو سريري، وقد أذهلهم أن يروني مضطربًا على ذلك النحو. بدا لهم عبثيًّا أن يبكي طفل صغير من أجل أيلين ميتين، فيما كان الدم البشري يسيل غزيرًا في العالم.

وأعترف بأنني، أنا الذي بكيت من أجل الحيوانات، كنت أفرح عندما أقرأ في بلاغات جيشنا الأحمر كم كان يقتل من ألماني كل يوم. لأنني لم أكن أتخيل الألمان كالبشر. بل كانوا شيئًا آخر: كانوا أعداءً.

منذ ذلك اليوم

في عام 1944، عدت أنا وأمي إلى موسكو. وهنا بالذات أتيح لي أن أرى لأول مرة في حياتي هؤلاء الأعداء. كان هناك، إذا لم تخني الذاكرة، خمسة وعشرون ألف أسير ألماني، سيمرون صفًا واحدًا عبر شوارع العاصمة.

كانت كل الأرصفة مزدحمة بالناس، مطوّقة بالجنود والميليشيا. كان حشدًا من النساء. نساء روسيات، بأيدٍ اخشوشنت من العمل الشاق، وشفاه لم تعرف أحمر الشفاه، وأكتاف هزيلة تحملت العبء الأساسي من الحرب. ولعل الألمان أخذوا من كل واحدة منهنَّ زوجها أو أباها أو ابنها أو أخاها.

كانت عيون النساء تتطلع بحقد نحو الشارع الذي سيُقْبِل منه صف الأسرى. ثم ظهر الموكب. في طليعته، كان يمشي الجنرالات وهم يكزون على أسنانهم ويزمون شفاههم، بصورة تنم عن الاحتقار. كانوا يريدون بذلك تأكيد استعلائهم الأرستقراطي على العوام الذين هزموهم. كانت الأيدي العاملة للنساء الروسيات تنقبض غضبًا أثناء مرورهم.

- الأوغاد! تفوح منهم رائحة الكولونيا! تعالى صوت من بين الجمهور.

كان على الجنود والميليشيا أن يدفعوا بكامل قواهم ليمنعوا النساء من اجتياز الحواجز.

وفجأة حدث شيء ما.

حين رأى الجمهور الجنود الألمان مقبلين، بأجساد هزيلة، وأزياء مغبرة، وذقون غير حليقة، ورؤوس معصوبة بضمادات مشربة بالدم، يتوكأ بعضهم على عكازات، أو على أكتاف رفاقهم، وهم يسيرون مطأطئي الرؤوس.

وعندئذٍ ران على الشارع صمت مطبق، كصمت القبور. ولم يعد يسمع إلا وقع الأحذية والعكاكيز البطيء والرتيب. ورأيت سيدة جليلة ومسنة، تحتذي جزمة روسية ضخمة، تربت على كتف أحد أعضاء الميليشيا:

- دعني أمر.

كان في صوت هذه المرأة شيء ما جعل الرجل يفسح لها الطريق، -كأنه تلقى أمرًا عسكريًا. اقتربت تلك السيدة من الصف وأخرجت من سترتها الفضفاضة كسرة خبز أسود، كانت تلفها في منديل بكل عناية. ثم قدمتها لأسير ألماني منهك القوى، لا يكاد يقف على ساقيه إلا بصعوبة. واحتذت بها نساء أخريات، فأخذنَ يلقينَ بالخبز والسَّجائر إلى الجنود الألمان المنهزمين.

لقد أصبحوا الآن بشرًا. ولم يعودوا أعداءً.

......

كنت أعيش في موسكو وحيدًا، في شقة فارغة، بشارع «البرجوازية الرابعة». كان أبي بعيدًا، في مكان ما بآسيا، في كزخستان، متزوجًا بامرأة أخرى وله طفلان، وكانت رسائله نادرة. أما أمي، فقد هجرت مهنتها كجيولوجية، واحترفت الغناء، وأخذت تقوم بجولات فنية على الجبهة.

كان الشارع مدرستي الوحيدة. علمني أن أجدِّف، أن أدخِّن وأن أبصق من بين أسناني ببراعة، وأن أجعل قبضتي يدي في حالة استنفار دائم. هذه العادة الأخيرة ظلت تلازمني مدى الحياة. علمني الشارع أيضًا أن الأساسي في الحياة، هو أن أقهر بداخلي الخوف من الأقوياء. وسأظل وفيًّا لهذا الدرس.

في شارعنا كان يهيمن فتى في السادسة عشرة من عمره، ذو منكبين عريضين على نحو شاذ بالنسبة لسنه، يلقب «بالأزعر». كان يتجول على الأرصفة بهيئة «باطرون» يتفقد أملاكه الخاصة. ويخطر على ساقيه القصيرتين كملاح على متن سفينته. وكانت عيناه الخضراوان كعيني قط تخترقان باحتقار كل مَن يصادفهم في طريقه. وعلى بعد خطوتين منه، كان يتبعه دائمًا اثنان أو ثلاثة من «ملازميه» مقلدين حركاته ومستعدين للتدخل في أية لحظة. كان «الأزعر» يملك سلطة أن يستجوب أي طفل عابر، وأن يأمره ببساطة، لكن بثقة:

- نقودك..

وعلى الفور يهرع الملازمون لتفتيش جيوب المعني بالأمر. وإذا ما حاول المسكين أن يعترض أو يقاوم، ينهالون عليه بالضرب المبرح دون رحمة أو شفقة. كان الجميع يخافون من «الأزعر». وأنا مثلهم. كنت أعرف أنه يخفي في جيبه قبضة معدنية أمريكية ثقيلة. إلا أنني قررت أن أتغلب على خوفي. في البداية كتبت أشعارًا في هجاء «الأزعر». كانت هي عملي الغنائي الأوّل. وسرعان ما ذاع صيتها في الشارع، وقوبلت بسرور كان بمثابة تعويض عن الشعور بالكراهية التي ظلت مكبوتة زمنًا طويلاً تجاه «الأزعر».

ذات صباح، بينما كنت ذاهبًا إلى المدرسة، صادفت في طريقي «الأزعر» وملازميه، فرماني بنظرة ثاقبة من عينيه الخضراوين وقال لي من بين أسنانه ساخرًا:

- آه! أنت الشاعر! يبدو أنك تكتب شعرًا جميلاً.

ودون أن يدع لي وقتًا للرد، سلح يده بالقبضة الأمريكية في جيبه بسرعة صاعقة، وانهال بها على رأسي بكل قواه. فسقطت مضرجًا بالدم، غائبًا عن الوعي: كانت هذه هي حصتي الأولى من حقوق التأليف!

ولم أبرح البيت لعدة أيام. ولما خرجت برأس معصوب التقيت «الأزعر» مرة أخرى، خلال لحظة، حاولت التغلب على خوفي منه. لكن الغريزة كانت أقوى مني. فأطلقت ساقي للريح، باحثًا عن مخبأ.

وفي البيت، انهرت فوق سريري، وأجهشت بالبكاء، خجلاً من خوفي الشديد. وأخذت أعض وأضرب الوسادة وأنا أقسم على الانتقام من «الأزعر».

ثم، بدأت أستعد للمعركة الحاسمة. فشرعت في ممارسة التمارين الرياضية. قضيت أيامًا وأنا أتمرن على المتوازيين، وأحمل الأثقال. وصباح كل يوم كنت أراقب بأمل نمو عضلات ذراعي. ولكنها مع الأسف، لم تكن تنمو إلا ببطء

شديد. وعندئذٍ تذكرت أني قرأت منذ عهد قريب عن طريقة خارقة للقتال لدى اليابانيين تجعل الضعفاء متفوِّقين على الأقوياء. فبحثت عن كتاب لرياضة «جيوجيتسو». وحصلت عليه في النهاية مقابل حصتي من الطعام لمدة عشرة أيام. واختفيت من الشارع خلال ثلاثة أسابيع، وأمضيت كل وقتي بالبيت مع بعض الفتيان في مثل سني، أتعلم قواعد الكتاب. ثم خرجت إلى الشارع. كان «الأزعر» متمددًا على مرج صغير في الساحة، يلعب الورق مع اثنين من ملازميه، كان مستغرقًا في اللعب بحيث لم ينتبه لقدومي. كان الخوف ينهشني وأنا أتقدَّم. وبداخلي صوت ينصحني بأن أعود أدراجي، وأنجو بنفسي. ولما دنوت من اللاعبين، بعثرت أوراقهم بضربة من قدمي. تطلع «الأزعر» إليَّ باندهاش. ثم نهض ببطء، وقال مهددًا:

- تريد «سلخة»؟

وكالعادة دسَّ يده في جيبه ليسلحها بالقبضة الأمريكية. لكنني في هذه المرة عرفت كيف أرد بحركة عنيفة وسريعة. أسقطت «الأزعر» فصاح من الألم. وقد أذهلته المفاجأة. ثم نهض وانقض عليَّ كثور جريح. غير أن كل شيء في كتابي كان محسوبًا ومتوقعًا. وبسرعة أرغم «الأزعر» على التخلي عن القبضة الأمريكية من أصابعه التي شلتها حركاتي الماهرة،

ليجد نفسه أخيرًا جاثيًا على ركبتيه أمامي. وجاء دوره ليذرف دموع الخيبة والمرارة. ومنذ ذلك اليوم وأنا أعرف أنه لا يجب على الإنسان أن يخاف من الأقوياء. ينبغي فقط أن يكون أقوى منهم. ولمقاومة كل أصناف الأقوياء توجد دائمًا طريقة ملائمة لطبيعتهم، كما في رياضة «الجيوجيتسو». ينبغي فقط تطبيقها بدقة.

ومنذ تجربتي مع «الأزعر» وأنا أعرف أيضًا أنه لكي يكون المرء شاعرًا، لا يكفي أن يعرف كتابة القصائد، بل ينبغي له كذلك أن يكون قادرًا على الدفاع عنها.

ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان

عادت أمي من الجبهة نحيلة بشكل غريب. كان شعرها الأشقر يميل إلى السواد. في البداية اعتقدت أنها صبغته. ولكنها أجابت عن سؤالي ببسمة حزينة ثم نزعت باروكتها. فبدا رأسها عاريًّا تقريبًا، شبيهًا برأس صبي صغير.

كانت قد أصيبت بمرض التيفوس، وفي المشفى العسكري حلقوا لها شعرها عن آخره. إلا أنها لم تفقد في الجبهة شعرها فحسب.

كانت في الجبهة تغني عدة مرات في اليوم. تارة فوق شاحنة وتارة أخرى فوق دبابة، أمام جنود كانوا يذهبون مباشرة بعد ذلك ليسقطوا في ساحة المعركة. كانت تغني تحت المطر وتحت الثلج وهي تتدفأ فقط بجرعة من زجاجة الفودكا

تقدمها لها يد جندي من وقت لآخر. كانت تجد هؤلاء المستمعين مؤثرين ورائعين. غير أن صوتها الجميل والقوي بدأ يعتريه الضعف والفتور.

لقد استطاعت أمي أن تتحمل كل شيء، بيد أن صوتها خانها. ومع ذلك وجدت عملاً بعد عودتها. إلا أنها لم ترد أن تقول لي أين.

وذات يوم سألني بعض زملاء المدرسة:

- هل أمك مغنية؟ فأجبته باعتزاز وفخر:

- أجل، مغنية.

- وأين تغني؟

- في مسرح..

وانفجروا بالضحك.

- مسرح؟ أي مسرح؟ إنها تغني في مقصف سينما «فوروم» خلال فترات الاستراحة.

وذهبت إلى «فوروم» يوم عيد النصر.

كان يومًا غريبًا. كانت المفرقعات تنطلق واحدة تلو أخرى نحو السماء. والعجزة الذين يبيعون عادة السجائر بالتقسيط كانوا يوزعونها مجانًا في ذلك اليوم. رأيت جنرالاً

اشترى جميع «المرطبات» من عربة متجولة ودعا إليها الأطفال العابرين. كان الناس يقبِّلون بعضهم بعضًا وهم يبكون ويضحكون، كانوا يحسون بأن محنهم القاسية قد انتهت وأنهم مقبلون أخيرًا على مرحلة حياة أفضل.

كانت سينما «فوروم» غاصَّة بالجنود والنساء، وكان الجو مشبعًا بروائح البيرة والعطر الرخيص. كانت زجاجات الفودكا تنتقل من يد إلى يد. كانوا يشربون من عنق الزجاجات. وكانت القبلات الدافئة تقوم مقام «زاكوسكي» (المزة). وكان المسئولون يغضون الطرف عن الفودكا والقبلات. ففي ذلك اليوم كان كل شيء مباحًا.

وفجأة ارتعشت.

على المنصة ظهرت امرأة ضئيلة، بفستان مشذر، وحذاء مذهب، وانطلقت تغني بمصاحبة فرقة موسيقية صغيرة. كان صوتها فاترًا ومشروخًا. ومن الصعب التكهن بجمالها القديم. كانت هذه المرأة هي أمي. لم يكن يستمع إليها أحد. كان الجنود والنساء يفضلون ارتشاف الكؤوس والقبلات. يا للعنة! أي نصر! من أجل هذا النصر ضحى الشعب الروسي بعشرين مليونًا من أبنائه وأمي - بصوتها.

وبعد ذلك بقليل، هجرت أمي منصة الغناء، لتصبح مديرة إحدى القاعات الصغيرة للحفلات الموسيقية. كان عملها الجديد في منتهى النكد. جَرَّ عليها الكثير من المتاعب وَدَرَّ عليها بمال قليل. وبراتبها - سبعمائة روبل - كان علينا أن نعيش نحن الثلاثة، إذ كانت عائلتنا قد اغتنت، خلال الحرب، بأخت صغيرة، اسمها إيلينا.

......

لقد جشمت أمي الكثير من المتاعب. إذ كان حبي الفضولي للحياة يسوقني نحو أشد المغامرات غرابة. كان لي مزاج صعب. في فترة من الفترات، اتخذت أصدقاء من بين اللصوص المحترفين. وفي فترة أخرى ارتبطت بعناصر من باعة الكتب في السوق السوداء. لكن في كل مناسبة، كان تدخل أمي ينقذني في الوقت المناسب من أية ورطة أقع فيها. كانت أمي تردد عليَّ مرارًا تلك النصيحة التي وجهها لينين إلى كل الروس:

«تعلموا ثم تعلموا ومرة أخرى تعلموا». إلا أنني كنت أدرس بشكل رديء. في بعض المواد، كالفيزياء، كنت ببساطة غير موهوب. ومازلت حتى اليوم أيضًا، غير قادر على فهم ما هي الكهرباء ومن أين تأتي. وحتى في اللغة الروسية، كانت لي نقط رديئة، خاصة في الشفوي. لكنني كنت أكتب بشكل

جيد، دون أخطاء تقريبًا، غير أني كنت أعتبر من الحماقة حفظ قواعد النحو الميتة..

لقد عاينت في المدرسة بذرة التكوين المستقبلي لجيلي. خلف القمطر الصغير كان يجلس منذئذٍ صغار الباحثين عن الحقيقة، وصغار الأبطال، وصغار الكلبيين وصغار الدوغمائيين. لم أكن أحب أولئك الكلبيين الأجلاف الذين يسخرون في كل لحظة ويستخفون بكل شيء، لكنني لم أكن أميل إلى أولئك المجدين الصغار، الذين يزدردون، دون اعتراض، كل ما تقدمه لهم الكتب المدرسية.

ومن مقعدي، تحت صورة ستالين، كانت نظرتي شاخصة عبر النافذة، وأنا أحلم بالهروب إلى مدرسة أخرى، مدرسة المدينة الكبيرة التي تعبق برائحة الثلج والسجائر، وبنزين السيارات، ودفء «بيروجكي» (مرطبات) الباعة المتجولين. وفي البيت، ما إن كنت أخلو إلى نفسي بعيدًا عن مراقبة أمي، حتى أتخلص من دفاتري لأكتب قصائد، يعكس فيها خيالي صورة حياة أخرى. لم أكن أتوقف عن الكتابة، إلا حين تتخدر يدي. في بعض الأيام، كنت أكتب من عشر قصائد إلى اثنتي عشرة قصيدة. وقد قصفت بإنتاجي مكاتب التحرير، التي كانت ترد عليَّ دائمًا بصيغة الرفض نفسها. وما زلت أتصور حتى دهشة محرر جريدة الطلائع (منظمة خاصة بالأطفال بين الثامنة والخامسة عشرة) عندما قرأ قصيدتي:

ينساب طريقي بدون نهاية

إنني أموت، مخيفًا ظل الليل.

لقد أحببتموني، يا رفيقاتي العابرات

لكن نسيتموني في اليوم التالي.

وذات يوم، بعدما فقدت كل أمل تقريبًا، توصلت بجواب من دار نشر «طليعة الشباب» يطلب مني فيه الحضور لمناقشة أعمالي. كانت الرسالة تحمل توقيع شاعر، هو أندري دوستال. كان شابًا نحيل الجسم، يضع عصابة سوداء على عينه اليمنى. كان شبيهًا بقرصان. بدا مندهشًا وهو يراني أدخل.

- أتبحث عن أحد، يا صغيري؟

قدمت له الرسالة.

- آه، فهمت، والدك مريض. لم يتمكن من الحضور بنفسه.

وأجبته بعصبية وأنا أضغط باضطراب على محفظتي المدرسية:

- ليس والدي، بل أنا صاحب تلك القصائد.

ظل دوستال ينظر إليَّ لحظة، مندهشًا ثم انفجر ضاحكًا.

- آه! لقد خدعتني حقًّا. كنت أظن أني أعطيت موعدًا لرجل أشيب عبر النار والماء.. في أشعارك الكثير من قصص الحرب، والألم، والحب المأساوي ...

اتجهت إليَّ أنظار كل الذين كانوا في الحجرة، كانوا يبتسمون. وخيل إليَّ أنهم يستهزئون بي. فاغرورقت عيناي بالدموع. ولما أحس دوستال باضطرابي، ربت على كتفي بود وأجلسني ثم حدثني عن كراسة أشعاري. وفيما بعد أصبحنا صديقين. لم يكن شاعرًا كبيرًا. ولكنه كان يحب الشعر. وقد نقل إليَّ الآمال التي لم يستطع تحقيقها هو نفسه. على العموم، لقد ساعدني، خلال حياتي الشعرية، شعراء متواضعون. وهؤلاء دائمًا أكثر عناية، وحنانًا تجاه الشعراء المبتدئين من الشعراء الكبار. ومع ذلك لم يستطع دوستال نشر أشعاري الأولى.

في هذه المرحلة، كان «مارتان إيدن» كتابي المفضل. كانت صفحاته الأولى بالنسبة إليَّ مصدر عون وإلهام. وفي الوقت الحاضر تعجبني أكثر صفحاته الأخيرة. لكن هذا الكلام سابق لأوانه.

......

لم تكن أمي تريد بأي ثمن أن أصبح شاعرًا.

ليس عن قلة ذوق وميل إلى الشعر. بل لأنها كانت مقتنعة بأن الشاعر شخص متقلب، قلق ومتألم دائمًا في حياته الشريدة. كانت تعرف أن مصير الشعراء الروس كان دائمًا تقريبًا مفجعًا: بوشكين وليرمونتوف قتلا في مبارزة، ألكسندر بلوك أحرق حياته شيئًا فشيئًا في دخان الليالي، منتحرًا في الواقع، يسينين شنق نفسه، ماياكوفسكي أطلق رصاصة على رأسه. لم تحدثني أمي عنهم، طبعًا، إلا أنها كانت تعرف أسماء عدة شعراء آخرين من جيلها هلكوا في المعسكرات الستالينية. فكانت ترتعش خوفًا من فكرة أن أختار الطريق نفسه. كانت تمزق دفاتر أشعاري. وتتوسل إليَّ باستمرار أن أهتم بشيء..

«جدي». لكن «الجدي» بالنسبة إليَّ كان هو الشعر بالذات.

واظبت على الكتابة بإصرار مجنون صغير. لم تكن لديَّ، طبعًا، أفكار كبيرة. لكنني كنت أبحث في الشكل، لعدة سنوات وأنا منشغل مثلاً بإيجاد قوافٍ جديدة. كانت القوافي في الشعر المعاصر تبدو لي مقيدة جدًا. كان ماياكوفسكي، خلال العشرينيات، قد قال مازحًا: إننا إذا بحثنا جيدًا، سنجد في مكان ما بفنزويلا نحو عشرين قافية لم يكتشفها أحد بعد. لكنني لم أكن أصدق ماياكوفسكي، رغم إعجابي الشديد به.

أليس هو نفسه الذي فَسَّرَ أنه لا ينبغي الوثوق بالسلطات الأدبية، مهما كانت؟

لم أختر طريق السهولة، الأثير لدى شعراء الغرب، ممن أكدوا أن القوافي في حد ذاتها متجاوزة، وأخذوا يكتبون مزيجًا من النثر والشعر. إذ إنهم في نظري كانوا بهذه الطريقة يقتلون إحدى أثمن مزايا الشعر: وهي موسيقاه.

في دفتر خاص كبير، سجلت أكثر من عشرة آلاف قافية جديدة، لسوء الحظ ضاع هذا الدفتر.. لكن هذه الأبحاث ساعدتني مع ذلك، وقد نسب إليَّ النقاد فيما بعد قوافٍ خاصة بي «يفتوشينكية». لقد كانوا كرماء: فأنا لم أبتكر شيئًا. استفدت فقط من بعض المبادئ الفولكلورية. لكن من الصعب عليَّ أن أشرح هذا العمل للقراء بسبب عائق الترجمة. على كل حال، بقدر ما كنت أشعر آنذاك أنني أكتب من حسن إلى أحسن، كنت في المدرسة أحصد علامات من سيئ إلى أسوأ. وكانت أمي تتذرع بحجة دامغة ضد مستقبلي الشعري:

- لن يعود عليك الشعر أبدًا لا بحياة هادئة ولا بمال!

إلا أني كنت أكره الحياة الهادئة، بالقوة نفسها التي أمقت بها المال.

يبدو أن أحد العظماء قد أكدَّ قديمًا: «أن المال هو سلاح تحرر الإنسان».

حسب رأيي، كان المال دائمًا وسيظل سلاحًا لعينًا للعبودية.

عندما لا يكون لدى الناس مال، فإنهم يسعون للحصول عليه بأي ثمن كي يعيشوا. وعندما يكون لدى الإنسان مال، فتلك صيغة أخرى للعبودية: الهوس، كيف يحافظ عليه أو ينميه. ومن أجل ذلك يبذر كثير من الناس أفضل جهودهم وطاقتهم.

لقد رأيت أية لعنة هو المال عام 1947، غداة الإصلاح النقدي الشهير.

نتذكر أن ستالين، كي ينظم المالية السوفييتية، ويقضي فورًا على التضخم المالي عقب الحرب، عمد إلى وسيلة فعالة فسك عملة جديدة.

أولئك الذين كانوا يودعون أموالهم في صناديق التوفير التابعة للدولة - وهم أقلية صغيرة-

سمح لهم بتحويلها كلها إلى العملة الجديدة. أما الآخرون فلم يؤذن لهم إلا بتحويل مقدار محدود وزهيد. وما تبقى من مدخراتهم أصبح بين عشية وضحاها بلا قيمة.

وما إن شاع خبر الإصلاح في موسكو حتى هـرع النـاس إلى المخازن التجارية وأخذوا يشترون ويشترون ويـشترون أي شيء. رأيت رجلاً مذعورًا، ينقل على شـاحنته بعـض أدوات المراحيض لأنه لم يجد غيرها في المحل. رأيت امرأة مسنة تلهث وتتصبب عرقًا وهي تحمل على ظهرها تمثالاً نصفيًا لفينوس..

ورأيـت، يـوم الإصـلاح، عجـوزًا يهـرول في الـشوارع، ويصيح بهستيرية وهو يرمي على الإسفلت بالنقود التي لم تعد لها قيمة ويدوسها بقدميه غيظًا وحنقًا.

بينما كنت أنا، واضعًا يدي في جيبي معطفي المرقع من كل جانب، أنظر إلى جميع هؤلاء الناس بنظـرة ثـوري مـستخف. كنت أحب أن أشاهد في السينما، أفلامًا عن الثـورة، وعنـدما كان الجنود والعـمال، بـشارة عـلى الـذراع، وبندقيـة في اليـد، يتحركون على الشاشة، كنت أغـص بالـدموع. كنـت أود أن أكون مثلهم، مترفعًا وأبيًّا. كـان يبـدو لي شـيئًا غريبًـا، وغـير مفهوم، أن يحب بعض الرجال المال كثيرًا، وهـم يحملون بطاقة الحزب الشيوعي في الجيب.

في ذهني، الشيوعية والنزاهة كلمتان مترادفتـان. بيـد أني أذكر والد أحد زملائي في المدرسة، الموظف السامي، بإحـدى المؤسسات التجارية، الذي رَدَّدَ عليَّ بأبهـة كلـمات لينـين: «في المجتمع الشيوعي، سوف نستخدم الذهب في بناء المراحيض»

وكم أعجبتني هذه الكلمات وأثرت فيَّ. لكن والد زميلي، في يوم الإصلاح المالي، عثر عليه جثة هامدة، برصاصة في الرأس، جوار فراشه المفتوق والمحشو بالنقود التي فقدت قيمتها.

وهكذا أدركت شيئًا فشيئًا أن بعض الأشخاص الذين يدعون أنهم شيوعيون ويلوحون بكلمات ستالين ولينين ليسوا في الواقع شيوعيين على الإطلاق. بالنسبة إليهم، الحصول على بطاقة الحزب والكلام عن الشيوعية، لا علاقة لهما بالقناعات الإيديولوجية. إنما هما ببساطة وسيلتان لإثبات الذات والوجود. فيما بعد، تحدثت عن مثل هؤلاء في قصيدتي: «اعتبروني شيوعيًّا!»:

أولئك الذين يمجدون

بحماسة

سلطتنا

ويكذبون في الاجتماعات

ما يحبون

ليس سلطة السوفييت

بل يحبون

السلطة! ببساطة!

وطبعًا، بما أنني كنت طفلاً، لم أستطع أن أفهم وأصوغ كل ذلك بوضوح. لكنني كنت أحس به تلقائيًا.

......

كنت وسأظل دائمًا أعز المثل الرومانتيكية لهؤلاء العمال والفلاحين الذين اقتحموا عام 1917 قصر الشتاء. ولذلك سيظل دائمًا الرجال الجشعون والنفعيون في نظري خونة للثورة.

يبدو لي مع الأسف أن كثيرًا من الاختصاصيين الغربيين في الشؤون السوفييتية يرتكبون إثمًا بالحكم على بلادنا ومثلها الثوري من خلال هؤلاء الخونة وليس من خلال الرجال الأوفياء لمعتقداتهم. ولكنهم يرتكبون إثمًا آخر، أشد خطورة أيضًا: إذ يعتقدون دائمًا أن الشيوعية فرضت اصطناعيًا على الشعب الروسي. كما لا يدركون أن هذه الفكرة قد امتزجت بدم ولحم الشعب الروسي. قال لينين: «إن روسيا قد ولدت ماركسيتها في الألم» كان يفكر طبعًا في روسيا القيصرية. لكن روسيا لم تعانِ من أجل الماركسية في الحقبة القيصرية فحسب، بل استمرت تدفع الثمن من أجلها في آلام وأخطاء مرحلة بناء المجتمع الاشتراكي.

إنني أحب شعبي؛ لأنني روسي ولأنني ثوري. وأعزه لأنه لم يسقط في النزعة الكلبية، ولم يفقد الإيمان بالطهارة الأصلية للفكرة الثورية، رغم القذارة التي تكالبت عليه.

إنني أكره الكلبيين الذين ينظرون إلى التاريخ من أوج ادعائهم وغرورهم، الذين لا يحترمون الكدح البطولي لشعبي، الذين يحاولون تقديمه كقطيع أغنام، غير قادر على التمييز بين الخير والشر. إن هؤلاء الرجال عاجزون عن تقديم أي شيء بنَّاء.

إلا أنني أكره بالقوة نفسها الدوجمائيين الذين يمثلون في نظري أبشع أنواع التحريفية. بعض الدوجمائيين ينطوون على تعصبهم عن حسن نية. لكن معظمهم -أنا مقتنع بذلك منذ طفولتي - لا يتفوهون بالكلمات الجميلة إلا لإخفاء مصالحهم الشخصية المشبوهة.

وما دمت أعتبر، كما قلت سابقًا، أن الشيوعية قد غدت روح الشعب الروسي، فأنا واثق أن الكلبيين والدوجمائيين ليسوا خونة للثورة فحسب، بل هم خونة لشعبهم كذلك. لقد عانى الشعب الروسي عبر قرون تاريخية ربما أكثر مما عانى أي شعب آخر. وكان بإمكان هذه التركة الثقيلة، كما يعتقد البعض، أن تحبط روحه، وتقتل فيه القدرة على الإيمان بأي شيء. لكنني أعتقد أن الصعاب التي تواجه أمة ما تتمخض

عن نتائج معاكسة. فالبلدان التي تحظى بامتيازات جغرافية أو تاريخية، والتي هي اليوم ظاهريًا من أغنى البلدان، تعاني بالضبط من نقص في حياتها الروحية، ومن شك مواطنيها في القيم الأخلاقية. ومهما كانت دلائل ثروتها الخارجية، لا أعتقد أن هذه الشعوب سعيدة. ويبدو لي أن المقولة القديمة للكتاب المقدس: «الإنسان لا يحيا بالخبز وحده» تفسِّر عمق مشاعرها. لعل أحد كبار فلاسفة الماضي قد قال: «الإنسان هو الحيوان الذي يعرف الحلم». بعض معاصرينا يثبتون في حياتهم صحة الشطر الأول فقط من هذه الجملة. لكن حتى هؤلاء، إذا تأملناهم عن كثب، سنجد أنهم مهما كانوا غير قادرين على أن يحلموا بمثل أعلى، فإنهم مع ذلك في حاجة إلى أن يحلموا بشيء ما.

لكم هي كئيبة حياة الإنسان بدون مثل أعلى. مهما حاول أن يخفي عن نفسه وعن عيون الآخرين، فإنه لا يعدو أن يؤكد الفراغ الممل الذي يعيش فيه. لكن إذا كان إنسان ناجح يعاني غالبًا من غياب المثل الأعلى، فإن الذي يعيش وسط الآلام لا يستطيع ببساطة الاستغناء عنه. لا يمكن للخبز أن يعوض المثل الأعلى بالنسبة لمن ليس له مثل أعلى. لكن المثل الأعلى يستطيع تعويض الخبز. تلك هي، في نظري، طبيعة الإنسان، وأنا مقتنع أن الآلام العظيمة وحدها تنجب المثل العليا العظيمة.

لماذا أخطأ ماركس حين تنبأ بقيام الثورة في البلدان الرأسمالية الأكثر تقدمًا وليس في بلد متأخر مثل روسيا؟ لماذا روسيا، الأخيرة في سباق التصنيع، أصبحت فجأة الأولى على طريق الاشتراكية؟ لأنها تنازلت للبلدان الأخرى عن التنافس الصناعي، لكن ليس عن كثرة البؤس الشعبي، وغزارة الدموع التي انسكبت يوميًّا. بلى، ستقولون لي، إن الثورة لم تحمل للشعب الروسي الانتصارات فحسب ولكنها حملت له أيضًا الكثير من الآلام الجديدة، والكثير من الدموع الندية، هذا صحيح. لكن لا ينبغي أن ننسى بعض الخصائص التي تميز الطبع الروسي، فالشعب الروسي معتاد على الآلام وهو قادر على تحمل ما لا يستطيع تحمله مواطنو البلدان الأخرى. أكثر من ذلك، إن الأم تحب أكثر الطفل الذي أنجبته في الألم. وكذلك الشعب يعز مثله الأعلى الذي دفع ثمنه من دمه ودموعه. لكن إذا كانت الغاية، إذا كانت الشيوعية وهمًا بحد ذاتها؟ - يسألونني في الغرب، فأجيب: كما أنه من الظلم الحكم على المسيحية من خلال محاكم التفتيش والكهنة المزيفين والمرائين، كذلك من المستحيل الخلط بين الفكرة الشيوعية والانتفاعيين وقضاة التحقيق الجدد الذين حاولوا احتكارها. «هل هو شيوعي؟» - هكذا كانت أمي تسألني في نبرة احتقار كلما التقت بكذاب، أو بيروقراطي مغرور، أو بوصولي

يستخدم بطاقته الحزبية لتحقيق مآربه. إن الشيوعي بالنسبة إليَّ ليس أي شخص كان، ولا علاقة لقيمته بالاشتراك الذي يدفعه للحزب بانتظام.

كل هذه الأفكار، البسيطة مثل حياة إنسان سوفييتي، استقرت في ذهني منذ الطفولة. وتعلمت منذ ذلك الحين أن أحكم بصرامة أكثر على أولئك الذين كانوا باسم «مصلحة الشعب» المزعومة، يتهافتون على الحياة ويضحون بالآخرين بلا رحمة أو شفقة. إنني أشعر بالخجل مكان ستالين، ومكان آخرين أيضًا. كيف استطاع أن يرتاب كثيرًا في هذا الشعب الذي كان مؤمنًا بالشيوعية وشديد الثقة به وَبِمَن كانوا حوله؟ لا أود أن أعيد الكلام عن عام 1937. ولكن، فيما بعد، ألا يستحق هذا الشعب - الذي نسي ما عاناه من مظالم، ودافع عن بلاده دفاعًا بطوليًا - أن يحظى ولو بمجرد الثقة؟

كانت الحرب قد انتهت، لكن كثيرًا من المنتصرين بالأمس كان عليهم أن يعانوا من عار المراقبة البوليسية وفي أغلب الأحيان من القمع بصريح العبارة.

طبعًا، لم أكن قادرًا على أن أدرك بأية مقاييس كان يمارس هذا القمع. إلا أني رأيت كثيرًا مع ذلك. وكان سلوكي الفوضوي والمتمرد يعكس وعيي المضطرب.

في مدرسة الحياة الشاقة

في المدرسة، اكتسبت بسرعة سمعة «خوليجان». كنت أشاكس كثيرًا التلامذة المجتهدين والمدللين من الأساتذة. بحيث تخلص مني هؤلاء منذ الصف السادس وأحلت على مدرسة خاصة بالأشقياء. وحتى في هذه المدرسة لم أمكث طويلاً. إذ حدث ذات يوم أن سطا أحد على مكتب المدير واختلس منه سجل العلامات فدعي جميع التلاميذ فورًا إلى اجتماع عاجل وحاول المدير، خلال ست ساعات، انتزاع اسم المذنب. لجأ إلى الوعد والوعيد لكنه لم يظفر بشيء. ظلوا جميعًا صامتين. وعندئذٍ استشاط المدير غضبًا فَمَدَّ نحوي إبهامه الضخم: «أنت الذي فعلها!» قلت له إنه مخطئ إلا أنه أصر مرددًا:

«هو أنت، أنت، أنت!» وفهمت آنئذٍ أن أية محاولة لإثبات براءتي سوف تذهب سدى. وفي اليوم التالي طردت من المدرسة.

بعد سبع سنوات، دعيت كشاعر، إلى أمسية لقدماء التلاميذ، فإذا بي أكتشف المذنب الحقيقي في تلك الحادثة. كان من الطبيعي أن تحوم الشكوك حولي؛ لأن في السجل المسروق كانت توجد أمام اسمي أضعف العلامات في اللائحة كلها. وفي يوم السرقة بالذات، حصلت على نقطة واحدة من عشرين في اللغة الألمانية. لكن، خلال هذا الحفل. اقترب مني فتى كان يعد من بين التلاميذ القلائل الذين تفخر بهم المدرسة، بفضل علاماته الجيدة. وقال لي بابتسامة مرتبكة:

- أتدري، أنا الذي سرقت السجل!

لقد قام بذلك، كما شرح لي؛ لأنه كان مستاءً. إذ لم يحصل إلا على 18 من 20 في أحد واجباته! كنت وأنا أصغي إليه أفكّر بمرارة: إن الجرائم في الحياة، غالبًا ما يقترفها أولئك الذين لهم دائمًا «عشرين على عشرين!» ومن غير أن يرتاب فيهم أحد أبدًا. وأولئك الذين يوصمون عادة بالتلاميذ السيئين أو «الأشقياء» يدفعون الثمن من أجلهم أحيانًا حتى ولو كانوا أبرياء تمامًا! ..

حاولت أن أخفي عن أمي خبر طردي من المدرسة، حتى لا أخلق لها المتاعب. ولكنها علمت به مع ذلك وألحت عليَّ، باكية، أن أذهب لطلب العفو من المدير. كان لي إبائي: رفضت إهانة نفسي من أجل شيء لا ذنب لي فيه ولم أسمح لأمي بأن تقوم بأي مسعى لإعادتي إلى المدرسة من جديد. وانتهى خصامي معها بالفرار من البيت. رحلت، فوق سطح إحدى عربات القطار، إلى كزاخستان، في آسيا، بحثًا عن والدي. وأنا آنذاك في الخامسة عشرة من عمري. كنت قد قررت الاستقلال بنفسي. وكان أبي يومئذٍ على رأس بعثة للأبحاث الجيولوجية. عندما رآني أمامه، هزيلاً، رث الثياب، قال لي:

- اسمع، إذا أردت حقًّا أن تكون رجلاً مستقلاً وأن تدبر أمورك بنفسك، لا ينبغي أن يعرف أحد أنني والدك. وإلا، فإن كل واحد هنا سوف يشفق عليك ويعتني بك، عن وعي أو بدون وعي. بينما الرجل غير محتاج لذلك.

وهكذا أصبحت عاملاً في البعثة الجيولوجية. تعلمت أن أحفر الأرض بالمعول وأن أقتلع منها أحجارًا مختلفة، أن أقطع عود الثقاب الأخير إلى ثلاثة أجزاء بشفرة الحلاقة وأن أشعل النار تحت المطر. كما تعلمت أيضًا ألا أكون مرهف الإحساس.

كان طباخ بعثتنا كزاخيًا ومن بين واجباته اليومية جلب الماء من جدول يبعد عن مخيمنا بسبعة كيلومترات أو ثمانية. ولهذه الغاية كان له برميل كبير يوضع على عجلات ويجره فرس هزيل. كان الماء الذي ينقله يستخدم للطبخ والنظافة والغسيل.

كنا نخرج كل يوم مع مطلع الشمس ولا نعود إلا في وقت متأخر ونقضي النهار كله في السهب الكازاخي الجاف، نجمع مختلف أصناف المعادن تحت شمس محرقة. وفي نهاية النهار كانت ظهورنا تتقوس تحت ثقل الأحجار المكدسة في أكياسنا «التيرولية». في الأيام الأولى طفح ظهري بجراح النتوءات الحادة للأحجار. إلا أننا لم نكن نعود أبدًا إلى المخيم قبل أن تمتلئ أكياسنا. ولكن ذات يوم كانت الشمس حارة بشكل لا يطاق، إلى درجة أن زمزمياتنا تبخر ماؤها سريعًا ولم نستطع البقاء وقتًا طويلاً. فقررنا العودة إلى المخيم. خلال الطريق لم يكن في أذهاننا جميعًا سوى صورة واحدة: هي صورة برميل الماء الصافي الذي سوف نغترف منه ونشرب، نشرب، نشرب. وفجأة، سمعنا أحدًا يغني خلف هضبة! فحثثنا الخطى، ولما وصلنا إلى قمة الهضبة رأينا الفرس الهزيل يجر برميل الماء وليس معه أي سائق. ولم نفهم من أين يأتي ذلك الغناء إلا حين اقتربنا ورأينا رأس طباخنا بارزًا من

داخل البرميل. كانت درجة الحرارة خمسًا وثلاثين والطباخ داخل البرميل يغوص في الماء البارد ويبدو مرحًا كطفل. كان يغني للحياة نشيد النصر. ودون أية كلمة انطلقنا نحوه راكضين وما كاد يرانا حتى أغمض عينيه رعبًا. أخرجناه من الماء عاريًا تمامًا ولكننا لم نمسه بأي أذى. كنا نهزه من كتفيه فقط ونحن نطرح عليه السؤال نفسه:

- هل كنت تفعل هذا دائمًا، أيها الوغد، أم المرة الأولى؟

فقال متلجلجًا مصطك الأسنان:

- المرة الأولى، المرة الأولى..

ثم تركناه وأخذنا نتأمل ماء البرميل، موزعين بين العطش والقرف. كان الجدول بعيدًا جدًّا، كي نفكر في رحلة جديدة لجلب الماء. ثم إننا لم نعد نقوى على الصبر. وفي النهاية صاح أحدنا بأسف:

- لا بأس! هو ماء على كل حال!

وغطس زمزميته في ماء البرميل. ولم نلبث أن احتذينا به وشربنا جميعنا حتى الارتواء. ومنذ ذلك اليوم، طارت حساسيتي المرهفة كـ «مثقف» إلى الأبد.

......

لقد تربيت في مدرسة الحياة الشاقة على الثقة بالآخرين.

ذات يوم، اكتشفت بفزع أن ثيابي ممتلئة بالقمل. ولم أعرف ماذا أفعل، إلى حد الشعور باليأس. فهمت على وجهي بعيدًا في السهب، حتى انتهيت إلى محجرة قديمة ومهجورة. خلعت فيها ثيابي كلها وبدأت أنظفها من هذه الطفيليات المقززة. كرهت نفسي. كنت عاريًا، وحيدًا، مرتعشًا من البرد والقرف وخيل إليَّ أن ضفادع المحجرة ذاتها كانت تنظر إليَّ باحتقار. لم يكن بإمكاني استبدال ثيابي لأني لا أملك غيرها. فشعرت بأنه محكوم عليَّ بالعيش إلى الأبد مع هذه الطفيليات التي يتعذر اقتلاعها.

وفيما أنا على هذه الحال، إذا بظل يمتد أمامي. رفعت رأسي فرأيت في طرف المحجرة فتاة قروية، حافية، تنظر إليَّ. اتكأت على الحاجز الترابي، متمنيًا لو ابتلعتني الأرض. وغطيت وجهي بيدي. وانخرطت في البكاء خجلاً. وعندئذٍ سمعت وثبة خفيفة بالقرب مني. كانت الفتاة القروية واقفة أمامي وهي تحاول أن تزيح يدي عن وجهي. كانت ترنو إليَّ بحنان عيناها الزرقاوان، المتألقتان تحت أهدابها الطويلة السوداء. قالت لي:

- مالك تبكي، أيها الأحمق الصغير؟ تعال معي.

ارتديت ثيابي بسرعة كيفما اتفق وتبعتها، مطأطئ الرأس. جهزت لي حمامًا وغسلتني كطفل ثم وضعتني في الفراش. بينما كانت ثيابي تغلي فوق النار. كان عليَّ أن أشعر بالهدوء والاطمئنان، لكنني لم أستطع. بقيت مستلقيًا على أريكة طويلة، أهتز من النحيب. جلست القروية، التي ارتدت منامتها، على حافة الأريكة، وقالت لي وهي تداعب رأسي:

- لم لا تهدأ، أيها الأحمق الصغير؟ لا داعي للخوف من الناس هكذا، فالناس يساعدونك دائمًا عندما تكون بحاجة إلى المساعدة. حاولت التخلص من عقدتي ولكنني عدت إلى البكاء رغمًا عني. قرفت من نفسي قرفًا شديدًا، أكثر من أي وقت مضى. وشعرت بأني مقرف في نظر الآخرين. أدركت القروية، بحدسها الأنثوي، مشاعري فقالت:

- ما الذي يدور في رأسك؟ أنك مقرف؟ لكنك غير مقرف على الإطلاق..

ورفعت اللحاف واندست إلى جانبي. ورغم التصاق جسدها القوي بجسدي ظل يعبق بعبير الشجر المقطوع والصابون. لن أنسى أبدًا تلك الليلة: ولن أنسى حنان تلك الفتاة القروية وجسدها المكتنز.

منذ ذلك اليوم، عرفت أنه لا يوجد في العالم أثمن من حنان الأنثى الفذ والرائع والمؤثر. ومنذ ذلك اليوم، أدركت أن

القيمة الوحيدة التي لا تقدر تقديرًا حقيقيًا، من بين جميع القيم المشكوك فيها بشكل أو آخر والمعترف بها في العالم هي قيمة الحنان.

صحيح أن كل امرأة تداعب رؤوسنا هي أم قبل كل شيء ونحن بالنسبة إليها كالأطفال، ومداعباتها هي أيضًا مداعبات الأمومة. غير أني عرفت حنانًا آخر، هو حنان الرجال الأبوي القاسي والطاهر. الجنود الذين كانوا، خلال الحرب، يدسون في يدي قطعًا من السكر، مضمخة برائحة التبغ، الفلاحون، الذين أنقذوني ذات يوم من مخالب دب هائج في غابة التايغا، الجيولوجيون، الذين ساعدوني على حمل كيسي التيرولي، الثقيل عليّ، العمال، الذين عالجوا ساقي المضرجتين بأعشاب طبية، كل هؤلاء، قدموا لي الدليل، منذ طفولتي، على أن أغلى رأسمال هو الحنان. وما زلت مؤمنًا بذلك.

أعتقد أن كل واحد منا صادف في حياته، شيطانًا حاول تحطيم ثقته في الإنسان، وأراد إقناعه باستحالة النزاهة. وحاول بالتالي أن يجره إلى المتاهة السوداء للنزعة الكلبية. أنا أيضًا كان لي شيطاني.

كان مهندسًا بأحد مناجم الحديد بكزاخستان، في الخامسة والأربعين تقريبًا، وذا رأس ضخم وأصلع نابت فوق جسده

الضئيل بشكل غير متناسق. وكانت عيناه الضيقتان ساخرتين على الدوام. كثيرًا ما كان يدعوني إلى بيته في المساء، بعد العمل، ليحدثني عن خساسة الناس ويشرح لي أن الحب والصداقة وكل المشاعر الجميلة ما هي إلا من اختلاق أدباء ليسوا في حياتهم الخاصة سوى أنذال كبار كالآخرين.

كان هذا الشيطان يعيش مع امرأة، كانت سابقًا تغسل الصحون في مقصف المنجم. كانت هزيلة، عادية، وتغض من بصرها أمام عيون جميع الرجال.

كان هذا الشيطان يمعن في تعذيبها باستمرار. بعد عودته من العمل يرغمها على غسل قدميه ويتعمد أن يحضر أحد هذا المشهد الطقسي. كان يتصور دون شك أنه، بإهانة هذه المرأة الهادئة والمتألمة دون أنين، كان يهين الإنسانية جمعاء. ذات يوم، عرض عليَّ وهو يضع قدميه في الماء الدافئ فلسفته بلذة وابتهاج:

- لعلك ممن يعتقدون أن العالم يحكمه الحب؟ لكن، انظر: إنني أنام مع هذه المرأة ومع ذلك فأنا أحتقرها. وهي الأخرى، تكرهني، ولكنها تنام معي وتغسل لي قدمي أيضًا. لماذا نعيش معًا؟ لأن كلاً منا بحاجة إلى الآخر، أنا، بحاجة إليها لأنام معها ولتغسل لي قدمي، وهي، بحاجة إليَّ من أجل الطعام والكساء. إن العالم كله يعيش هكذا: ليس الحب هو

الذي يسود في العالم بل الحقد المتبادل الـذي تلطفـه الحاجـات الظرفية.

اختلست النظر إلى المرأة. كانت منهمكة في غسل قـدمي جلادها وهي تبكي في صـمت ودموعهـا تتـساقط في الـسطل الخشبي.

كانت حجج الشيطان تبدو مقنعة. إلا أنه بقـدر مـا كـان يتفلسف، كنت أحس بمقاومتي الداخلية تتصاعد. ذات يوم، طلب مني هذا الشيطان مرافقته إلى المدينـة كـي يتـسلم منهـا أجور عمال المنجم. كان سائق الشاحنة شابًا صامتًا، ذا ذراعين موشومتين وأسنان فولاذية. قال لي الشيطان بـصوت خافـت قبيل انطلاق الشاحنة مشيرًا بإصبعه إلى السائق:

- يجب أن تكون حذرًا، لقد سبق لهذا الشخص أن دخل إلى السجن. لكن لديَّ هنا بِمَ ندافع عن أنفسنا..

وجعلني أجس بيدي المسدس الذي يخفيه في جيبه ملحًّـا عليَّ أن أحترس أنا أيضًا.

في البنك، أحصى الـشيطان، بكـل عنايـة، حـزم الأوراق النقدية، ورقة بعد ورقة ثم صفها في محفظة جلدية بالية. وبعد ذلـك صـعدنا نحـن الثلاثـة إلى الـشاحنة. والـشيطان يـضع المحفظة فوق ركبتيـه. كـان علينـا أن نقطـع مـسافة خمـسمائة

كيلومتر في طرقات غير معبدة، وسط منظر صحراوي، تحيط بنا بحيرات جافة من الملح، وفوقنا نسور تحوم بمهابة متجهة نحو شاحنتنا برؤوسها الكاسرة. ضاق الشيطان بهذا المنظر فأخذ يتفلسف من جديد. قال مخاطبًا السائق:

- انظر كم هي غريبة هذه الحياة! أنت تعرف أن في محفظتي كثيرًا من النقود وأنا متأكد أنك تود لو تسرقها مني. ولكنك تعرف أيضًا أن معي مسدسًا وأنك مهما حدث، لن تذهب بعيدًا بالنقود، حتى ولو قتلتني، أو بالأحرى، لعلك تريد قتلي حالاً، اعترف بذلك؟

كان الشيطان يضحك، معجبًا بنفسه. لكن السائق لم يقل شيئًا. كانت فقط ذراعاه الموشومتان تنقبضان قليلاً فوق مقود الشاحنة. ثم واصل الشيطان كلامه قائلاً:

- كل الناس ينطوون على طبيعة اللصوص والمجرمين. غير أنهم يخافون العقاب. ولو ألغي العقاب، لتقاتل الناس فيما بينهم ولسرقوا بعضهم بعضًا باستمرار...

في هذه المرة، لم يجد الشيطان الوقت الكافي لإنهاء أطروحته. إذ ضغط السائق على الفرامل بقوة، حتى أني كدت أصدم بجبيني الزجاج الأمامي ولمعت شرارات أمام عيني.

ولما استعدت وعيي كان السائق يمسك في يده بمسدس الشيطان، الذي لم أعرف كيف انتزعه منه.

- انزل من هنا، يا قمل العانة!

خاطبه بصوت هادئ وهو يصوب المسدس نحو بطنه:

- إنك لا تخرج من فمك كلمات بل ضفادع.. لوّثت علينا حجرة السياقة برائحة نتنة منذ أن.. لم نعد نقوى على التنفس! اخرج، لكن اترك النقود هنا!

انتزع السائق المحفظة من يدي الشيطان وطرده من حجرة السياقة وضغط على دواسة البنزين فانطلقت بنا الشاحنة بأقصى سرعة.

سألني السائق باسمًا:

- أتعرف فيم يفكر الآن؟ يظن أنني أهرب بنقوده.. إن أمثاله يحكمون على الآخرين دائمًا انطلاقًا من حقيقتهم هم.. لو تركوا يفعلون ما يشاءون للوثوا العالم كله ولأرغمونا جميعًا على السير في القذارة حتى الركب..

التفت فرأيت، وسط السهب المقفر، الشيطان الصغير، يركض وراء الشاحنة وهو يصيح ملوحًا بيديه. كان يتضاءل أكثر فأكثر:

- لا تخشَ عليه شيئًا. قال السائق من بين أسنانه، إن أمثاله من البشر لا يضيعون أبدًا.. إنهم لا يتعبون مع الأسف.

واصلنا رحلتنا، وما كدنا نقطع حوالي مائة كيلومتر حتى بدأ محرك الشاحنة يخشخش.. فكان لابد لنا من التوقف. قال لي السائق متضايقًا: - لا ماء في المبراد.. تبخر كله. ولا أدري كيف سنعثر على الماء هنا.

تطلعنا إلى السهب المترامي الأطراف. وبقينا صامتين لحظات ثم اقترح السائق حلاً:

- ابق أنت هنا واحرس الشاحنة. سأذهب أنا بحثًا عن الماء، سآخذ النقود معي، هناك الكثير من الأشخاص الخطيرين المتسكعين في أرجاء السهب، من الأفضل أن تنتظرني هنا دون أن يكون معك هذا الطعم. وما إن قال هذا حتى حشا جيوبه وقميصه بالنقود، وطرح جانبًا المحفظة الفارغة وانطلق بخطى حثيثة.

بقيت وحدي بلا ماء ولا زاد وسط السهب الممتد على مدى البصر.

غربت الشمس وأشرقت مرتين وأنا وحيد. كنت أطوف حول الشاحنة، امتص العصير المر لأعشاب السهب. ثم بدأت الكوابيس. كانت تتراءى لي آلاف الشياطين الصغيرة مع

آلاف النساء الصامتات اللواتي يغسلنَ أقدامهم، وكل هؤلاء الشياطين كانوا يصيحون بصوت واحد: «أرأيت، لقد تخلى عنك! لم ترد أن تصدق أن جميع الناس أنذال! لديك الآن الدليل. ها أنت تعرف مَن كان على حق!».

وانتهيت إلى الانهيار على الأرض وأنا أنهال عليها ضربًا بقبضتي يدي صائحًا بصوت هستيري: غير صحيح! غير صحيح!

في الليلة الثالثة، عندما كنت مستلقيًا داخل الشاحنة، منهك القوى، سقطت على عيني فجأة حزم من الضوء.. وخيل إليَّ أني أرى أشباحًا صغيرة سوداء حول الشاحنة.

انفتح الباب واحتضنتني بحنان ذراعان موشومتان:

– أنت حي! كنت أعرف أنك ستكون حيًّا!

صب السائق الحليب في فمي وأيقظني برفق.

منذ ذلك اليوم، صادفت في حياتي كثيرًا من الشياطين. ومن المحتمل أن أصادف منهم آخرين أيضًا. إلا أنهم لن يستطيعوا أبدًا تحطيم ثقتي في الإنسان. لقد كانت تجربتي الأولى أمر وأقسى ولكنها حصنتني ضد إغراءاتهم نهائيًّا.

......

بعد ذلك بفترة قصيرة، شاركت في بعثة جيولوجية ثانية في ألطاي. لم أعد مجرد عامل عادي، بل بمثابة تقني يسمى «جامع الأحجار». كان أيضًا ضمن فرقتنا أناس أنانيون، كلبيون ومؤلمون، لكن حياتي في البعثة أقنعتني أكثر فأكثر بأن الناس الطيبين هم الأغلبية في العالم. وقد لاحظت أن الناس الأشرار يشكلون في الغالب جبهة مشتركة حتى ولو كانوا يكرهون بعضهم بعضًا، بينما الناس الطيبون أكثر انقسامًا ولهذا السبب بالذات هم أكثر ضعفًا.

تعلمت أيضًا أن الذكاء لا يقاس بكمية المعارف. إن الميزة الأساسية لإنسان ذكي تكمن في قدرته على فهم ومساعدة الآخرين. وبدا لي، حسب هذا المعيار، أن كثيرًا من الناس «المثقفين» جدًّا، هم أدنى عقليًّا من بعض الفلاحين البسطاء، والجنود والعمال وحتى من بعض المجرمين. إن الناس الذين يحفظون ويستظهرون عن ظهر قلب جميع الكلاسيكيات، من أفلاطون إلى كافكا وجويس، لا يتصفون بالضرورة بسمو الفكر. وحدهم، الناس الطيبون والمنفتحون على الآخرين يستحقون هذه الصفة! ..

كرة القدم والشعر

عدت إلى أمي بسحنة ملوحة بحرارة الشمس وهيئة طافحة بالفحولة.

استقبلتني في محطة القطار وفي الترامفاي الذي أقلنا إلى البيت انطلقت أحكي لها عن مغامراتي بفخر دون أن أعير انتباهًا للركاب، الذين كانوا يحدجونني بنظرات تنم عن الدهشة والاستغراب. وفجأة، لاحظت أن أمي كانت تبكي. خلال لحظة، لم أفهم شيئًا، ثم أدركت أنني كنت أحكي لها بتلك اللهجة العامية التي اعتدنا عليها بين الجيولوجيين والتي لابد أن تبدو فظة وبذيئة لآذان سكان المدينة المتعودين على لغة روسية أكثر أدبية. لم تنقطع دموع أمي إلا بعد أن وعدتها بعدم

استخدام عبارات بذيئة ولم أستعملها بالفعل. أو بالأحرى فلنقل: تقريبًا..

حين وصلنا إلى البيت فتقت أحد جيوب سروالي الداخلية وأخرجت منه النقود التي كسبتها بعرق جبيني في آسيا ووضعتها فوق المائدة. سألتني أمي مستغربة:

- ماذا ستفعل بكل هذه النقود؟

- سأشتري آلة كاتبة والباقي لكِ.

ومنذ اليوم التالي، بدأت فعلاً أكتب بضراوة وأقصف مكاتب التحرير بأشعاري. لكن الآلة الكاتبة لم تحدث معجزة. سواء كتبت أشعاري بخط اليد أم رقنت فإن ذلك لم يغير شيئًا من مصيرها: لم تكن تنشر.

كانت لي هواية أخرى في الحياة: هي كرة القدم.

بالليل كنت أكتب الشعر وفي النهار ألعب كرة القدم، في الساحات العمومية والأرض الخلاء. كنت أعود إلى البيت بحذاء مثقوب وسروال ممزق وركبتين داميتين، غير أن صوت قذفات الكرة الجلدية كان يبدو لي من أقوى النغمات الموسيقية سحرًا.

إن متعة خداع عدة خصوم بمراوغات غير متوقعة ثم تسجيل إصابة مفاجئة في الشباك إلى جانب يدي الحارس

العاجزتين، كانت بالنسبة إليّ متعة شعرية حقيقية. ومهما بدا هذا غريبًا، فقد كنت دائمًا أحس بأن هناك شيئًا مشتركًا بين كرة القدم والشعر.

لقد علمتني كرة القدم أشياء كثيرة في الحياة.

أصبحت حارس مرمى، وتعلمت أن الأهم ليس أن يتقن اللاعب الهجوم فحسب ولكن أن يراقب أيضًا مراقبة يقظة أي حركة من حركات الخصم، وأن يعرف كيف يحبط حيله ويتكهن بنياته، كل ذلك ساعدني كثيرًا فيما بعد، في معركتي الأدبية.

كانوا يتنبأون لي بمستقبل زاهر كحارس مرمى. وقد غدا كثير من زملائي الذين كانوا يلعبون معي يومئذٍ نجومًا محترفين، ومازالوا حتى اليوم، كلما التقيت بهم، يغبطونني لأنني أصبحت شاعرًا فأغبطهم أنا بدوري لأنهم صاروا لاعبي كرة قدم.

يبدو لي أن قواعد كرة القدم أبسط من قواعد الأدب.

إذا سجل اللاعب هدفًا فالدليل الحقيقي على ذلك يظهر للعيان فورًا: الكرة في الشباك، وكما يقال فالفعل غير قابل للنقاش. (أعرف أن الحكام قد يرفضون أحيانًا إصابة لكن هذا استثناء أكثر مما هو قاعدة).

وعلى عكس ذلك، إذا سجل الشاعر هدفًا، فالشيء الوحيد الذي يسمعه هو دوي آلاف الصفارات التي يطلقها بعض الذين نصبوا أنفسهم والذين يبادرون إلى التصريح بأن القذفة ليست محكمة، وأن الكرة مرت جانبية وبالتالي فالعمل لا يستحق أية مكافأة. ومن المستحيل إثبات أي شيء. الأسوأ من ذلك: أن أغلب القذفات التي تمر بوضوح بعيدًا عن المرمى كثيرًا ما يعتبرها حكام الشعر الرسميون قمة في الإبداع. وكلما رأيت مثل هذه الأحكام الأدبية الجائرة إلا وتأسفت على ترك كرة القدم. مع أني كنت قاب قوسين من النجاح في هذا الميدان. ذات يوم، خلال مباراة بين فريقين للشبان، ظهرت ملهمًا بوجه خاص: إذ استطعت كحارس مرمى، إنقاذ ثلاث ضربات جزاء، وعقب انتهاء المقابلة طلب مني مدرب فريق مشهور الاتصال به في اليوم التالي للقيام بمحاولة تجريبية. وقد هنأني وغبطني جميع زملائي في الفريق.

إلا أن هناك حدثًا آخر لعب خلال هذه الفترة دورًا كبيرًا في تحديد اتجاه حياتي.

كنت لمدة طويلة أود حمل أشعاري إلى صحيفة «الرياضة السوفييتية». ولعلها كانت الجريدة الوحيدة التي لم يسبق لي أن تقدمت إليها بإنتاجي.

مباشرة بعد المباراة انطلقت بالقميص القصير والشورط الأزرق لأقدم لمكتب التحرير قصيدة عن تقاليد الرياضيين السوفييت والأمريكيين. كانت مكتوبة بأسلوب «مستوحى من ماياكوفسكي».

كانت مكاتب «الرياضة السوفييتية» عبارة عن قاعة واحدة كبيرة، يتراءى فيها، عبر دخان التبغ، بضعة أشباح رجال يضربون على الآلة الكاتبة أو يكتبون بخط اليد. طلبت بصوت عالٍ مقابلة المسؤول عن الزاوية الشعرية، فصاح شبح من داخل سحابة الدخان: «لا وجود لهذه الزاوية» لكن، فجأة، خرجت يد من السحابة لتحط على كتفي وسمعت صوتًا ودودًا يقول لي:

- قصائد؟ أرني إياها، من فضلك.

وعلى الفور وضعت ثقتي في هذه اليد وفي هذا الصوت ولم أخطئ.

وجدت نفسي أمام رجل في نحو الثلاثين، بشعر فاحم وعينين جميلتين شرقيتين قليلاً، اسمه نيكولا ألكسندروفتش تاراسوف، وهو مسؤول عن أربعة أركان في وقت واحد: الشؤون الخارجية وشؤون الحزب وكرة القدم والأدب.

أجلسني تاراسوف وقرأ بسرعة قصيدتي ثم فكر قليلاً وسألني:

- ألديك أشعار أخرى أيضًا؟

- نعم. لكن ليس عن الرياضة.

-ذلك أفضل. قال تاراسوف باسمًا.

تناول مني الكراسة المنكمشة التي نسخت فيها قصائدي وشرع في قراءتها بصوت عالٍ، دون أن يعبأ بطقطقة الآلات الكاتبة ثم نادى امرأة وَدُوْنَ أن يطلب مني شيئًا، أطلعها على مقطع أشبه فيه عناقيد العنب بكرات الأطفال. ثم استأنف القراءة بصوت عالٍ، فجاء بضعة صحافيين ومصورين وراقنين وتحلقوا حوله. كانوا يستمعون. وطرح عليهم تاراسوف هذا السؤال:

- ما رأيكم إذن، سيصبح شاعرًا؟

فرد عليه الآخرون بصوت واحد:

- بلى، سيصبح شاعرًا!

وربت أحدهم على كتفي وأعاد عليَّ شخصيًا: «ستصبح شاعرًا!». كان تاراسوف موافقًا إذ قال بابتهاج: «لدي الرأي نفسه».

لم أعرف، لحد الآن، كيف استطاع هؤلاء الرجال أن يتنبأوا بالشاعر فيَّ. لعلهم كانوا يستفيدون من أن الأدب ليس مهنتهم وأن رؤوسهم لم تكن مثقلة بشتى أصناف الأعمال الأدبية.

عندما أصبحنا وحدنا، تناول تاراسوف قصيدتي: «رياضتان» وقال لي:

- إنها أردأ ما كتبت من قصائد، ولكن هي التي تصلح للنشر عندنا. ثم كتب على هامشها هذه العبارة السحرية التي انتظرتها طويلاً: «للتصفيف». وطارت قصيدتي إلى حيث لا أعلم. ثم واصلنا الحديث. سألني:

- مَن هو شاعرك المفضَّل؟ ودون تردد أجبت:

- ماياكوفسكي.

- جميل، ولكن هذا لا يكفي.. هل تعرف باسترناك؟

- أجل، أعرفه.

- أنت تكذب. حتى وإن ظننت أنك تعرفه فأنت لا تعرفه.

وأخذ تاراسوف يستظهر قصائد لباسترناك لم يسبق لي أن قرأتها فعلاً. فقاطعته سكرتيرته بلطف:

- نيكولاي ألكسندروفتش، ها أنت عدت مرة أخرى للحديث عن شاعرك باسترناك..

- لحسن الحظ، أننا في جريدة رياضية.. رَدَّ عليها باسمًا ثم واصل حديثه معي.

- إذا لم تكن مستعجلاً، أحب أن أقدمك إلى أحد أصدقائي، عالم فيزيائي. اتصل به هاتفيًا وفي انتظار وصول صديقه انحنى فوق كراسة أشعاري وحدَّثني عن جوانب الضعف فيها، دون أدنى مجاملة:

- هذا أشبه بالماء الفاتر، وهذا أردأ؛ لأنه يدل على ذوق غير سليم، هنا، نشعر بالملل، هذا البيت لا معنى له على الإطلاق. غير أنه كان يجد الفرصة ليثني عليَّ من حين إلى آخر أمام بعض الأبيات المنفردة:

- هذا قوي جدًّا.. هذا المقطع ذو قيمة تجريبية..

وبعد لحظات رأيت رجلاً شاحبًا يدخل إلى المكتب، كان في نحو الثلاثين من العمر، عريض الجبين، متوتر الخطى. كان يحمل تحت إبطه علبة ورقعة شطرنج كبيرة.

- آه، ها هو ذا فولوديا بارلاس، صديقي الفيزيائي.. أقدّم لك شاعرًا، يوجين يفتوشينكو.

كانت هذه أول مرة في حياتي أقدَّم فيها كشاعر. لكن الفيزيائي بدا متحفظًا:

- شاعر!؟ الشاعر يعني الكثير..

بدا لي غريبًا وغير طبيعي.

خرجنا، نحن الثلاثة، إلى شوارع موسكو. كان ذلك في بداية شهر يونيو 1949، والريح تداعب أوراق الشجر الغضة. التفت بارلاس نحوي وقال لي بنبرة نصف ساخرة ونصف فلسفية:

- أيها الشاعر، أيها الشاعر، هل تستطيع أن تكشف لي عما تود أن قوله للعالم؟

تولى تاراسوف الإجابة بالنيابة عني:

- قبل كل شيء، يريد أن يقول للعالم إنه شاعر، وتلك بداية لا بأس بها.

كان التأثر باديًا على تاراسوف. فهذا الرجل الغريب، بجبينه المريخي العريض، ورقعة الشطرنج تحت إبطه، كان يعني الكثير بالنسبة إليه. وقد بدا لي أنني أنا أيضًا بدأت أعني في نظره شيئًا. ونحن نسير، قرأت العديد من قصائدي. وما لبث بارلاس أن عَبَّرَ عن وجهة نظره:

- قد تكون موهوبًا.. فلقصائدك نبرة خاصة.. بيد أنني لا أرى شيئًا في نفسك عدا الرغبة في إقناع العالم بأنك موهوب.. وهذه بالطبع مهمة ليست سهلة بحد ذاتها.. ولكن، إذا افترضنا أن العالم اعترف بموهبتك فإنه عندئذٍ سوف ينتظر منك أشياء مهمَّة، فماذا ستقول له إذن؟

- فولوديا.. أرجوك، لا تنسَ أن هذا الفتى في الخامسة عشرة..

مرة أخرى تدخَّل تاراسوف للدفاع عني. لكن بارلاس بدا عنيدًا إذ قال بفظاظة:

- في سنه يكون المرء قادرًا تمامًا على التفكير.. وإذا لم يفعل هذا الآن فلن يفعله أبدًا.

- كل شيء سيأتي في وقته، قال تاراسوف، ما يهم بالنسبة إليه هو أن يتعلم الكتابة وليس التفكير، إنك تبالغ في تقدير أهمية المضمون العقلاني للشعر.

- لا شيء يأتي وحده، تابع بارلاس، فالمشاعر العظيمة شيء جميل، لكن المشاعر وحدها ليست بالشيء الكثير..

تابعت هذا الجدال في صمت، لكنني سأظل مدينًا للظروف التي أسعفتني بلقاء هذين الرجلين. فهما اللذان حددا بقسط وافر اتجاه حياتي. لقد كانا يحلمان بأن يصبحا كاتبين وقد رأيا فيَّ إمكانية لتجسيد أحلام شبابهما. كانا معًا يعرفان أشياء كثيرة وقد أرادا أن يتقاسماها معي.

مشينًا طوال الليل تقريبًا، وعند انبلاج الفجر ألقى تاراسوف نظرة على ساعته وقال لي بلطف:

- بعد ساعة ستصدر الجريدة بقصيدتك. تذكَّر أنك منذ تلك اللحظة لن تصبح ملكًا لنفسك وحدها.

غير أنني لم أعر أي اهتمام لهذا التحذير. لم أكن أنتظر إلا لحظة افتتاح أكشاك الصحف كما ينتظر السكارى افتتاح الحانات.

وفي الساعة السابعة صباحًا، انتزعت من يدي أحد الباعة أول نسخة من «الرياضة السوفييتية» واستطعت أخيرًا أن أرى اسمي مطبوعًا تحت قصيدة..

كانت الأرض ترتج تحت قدمي، وشعرت بنفسي عبقريًّا.. اشتريت نحو خمسين نسخة من الكشك وانطلقت أعدو إلى البيت، ملوحًا بها وأنا أكاد أطير من نشوة النصر.

لما اطلعت أمي على عملي لم تجد بِمَ تثني عليَّ غير هذه الكلمات:

- «مسكين أنت يا ولدي.. لقد ضعت الآن نهائيًّا».

وربما كانت على حقٍّ؟..

القاطرة المبذرة بخارها في الصفير
لا تذهب بعيداً

في اليوم التالي، كان عليَّ أن أستلم أولى مكافآتي الأدبية: ثلاثمائة وخمسين روبلاً. فاعترضتني بعض العراقيل لأني لم أبلغ السادسة عشرة وهي السن الضرورية للحصول على البطاقة الوطنية (في الاتحاد السوفييتي نسميها «الجواز» لكنه للاستعمال الداخلي فقط). وأخيرًا، وافقت الفتاة في قسم الحسابات على دفع المبلغ إليَّ بعد الاطلاع على شهادة الميلاد. وتمالكت نفسها عن الضحك وهي تنظر إلى قميصي وحذائي الرياضي شبه الممزق وإلى أنفي المقشر من المباريات تحت شمس الملعب..

- انظري إلى هذه البطة المبتلة! همست لجارتها خلف ظهري.

وضعت أنا النقود في جيبي وقلت بأدب: مع السلامة. وانصرفت مثل بجعة واثقة من الاعتراف بجمالها ذات يوم.

كنت أعرف من أمي ومن مطالعاتي أن معظم الشعراء الكبار كانوا من كبار المدمنين على الخمر. وبما أنني أصبحت أخيرًا من أصحاب المهنة، قررت تكريس نقودي الأولى لحفلة عربدة. استشرت ابن بوابنا الذي كان صديقي وهو فتى تتري قصير في الخامسة عشرة فقال بأبهة: إننا يجب أن نحتفل في مطعم ولكن ليس وحدنا بل مع نساء. وهكذا دعونا فتاتين في السابعة عشرة من عمرهما، إحداهما حلاقة متمرنة والأخرى متدربة في مصنع تعدين. وتبعًا لنصيحتهما اخترنا مطعم «الفجر». بدت لي هذه البناية الضخمة، الصاخبة والمزينة بذوق رديء بتماثيل الحب الصغيرة تجسيدًا لعالم سحري. في قائمة الطعام قرأت «نبيذ جاف» فطلبته فورًا. ولكن، خاب ظني حينما قدمت لنا زجاجة إذ كنت أتوقع أقراصًا من الخمر المجمد. وفي النهاية أعادتني نساؤنا، في حالة يرثى لها، صباح اليوم التالي، إلى بيت أمي، التي بكت بحرقة. عندما أفقت شعرت بالألم والصداع. وتذكرت عبر الضباب المخيم على ذاكرتي أنني على موعد في العاشرة صباحًا بالملعب لاختياري لاعبًا محترفًا في كرة القدم.

وقفت أمام المرمى ولكنني لم أستطع متابعة اللعب: كنت أرى كرتين أو ثلاثًا في الوقت نفسه ولم أصد أي واحدة. أقبل عليَّ المدرب بادي القلق وسألني بلطف:

- ألست مريضًا هذا الصباح؟ ولما شمَّ أنفاسي، صاح بسخط:

- في العاشرة صباحًا: سكران تمامًا! صبي في الخامسة عشرة؟ من العار العيش في عصر كهذا!

وهنا انتهت مهمتي كلاعب كرة قدم، بلا مجد!

......

ومرت حياتي عندئذٍ تحت وصاية تاراسوف وبارلاس. لن أفهم أبدًا كيف استطاع هذان الرجلان أن يجدا كل ذلك الصبر للاهتمام بصبي رديء الطبع مثلي. إنني مدين لهما بتكويني الثقافي والشعري ولن أستطيع أبدًا أن أرد لهما هذا الجميل.

كان فولوديا بارلاس بالنسبة إليَّ مكتبة حية كشف لي عن أسرار الفلسفة المعاصرة. وجعلني أكتشف هيمنجواي. اليوم تنشر كتب هيمنجواي في روسيا بنسخ ضخمة، ولكنها في تلك الفترة كانت لا تزال إحدى التحف النادرة التي يملكها عدد قليل من الموسكوفيين: «وداعًا للسلاح»، «الشمس

تشرق أيضًا»، «أن تملك وألاَّ تملك»، «ثلوج كليمنجارو» - كل هذه الروائع أثارتني بكثافتها الأدبية الغريبة وبالشجاعة المنبعثة منها. فيما بعد، آثرت «لمن تُدق الأجراس» التي يعتبرها بعض النقاد الغربيين عملاً ثانويًّا لهيمنجواي. إلا أن لوحتي المرأة العجوز والبنت الصغيرة من أنجح اللوحات في الأدب العالمي. لقد أظهر هيمنجواي بروعة من خلال شخصية أندري مارتي كيف أن المتعصبين رغم نزاهتهم الموضوعية يمكن أن يتحولوا إلى مجرمين. وتنبأت هذه اللوحة بكثير مما سيقع في المستقبل.

وجهني فولوديا بارلاس أيضًا إلى الأعمال غير المعروفة كثيرًا في بلادي لـ «كنوت هامسون»، جيمس جويس، سيجموند فرويد، مارسيل بروست، جون شتاينبك، ويليام فوكنر، أنطوان دي سانت أكسوبري. وجعلني أكتشف الاستعارات شبه التوراتية لـ «هكذا تكلم زرادشت». وقد شعرت بألم جسدي حقيقي عندما علمت أن الفاشيين حاولوا استخدام عمل نيتشه كسلاح إيديولوجي. أي مصير رهيب وجائر لهذا الكاتب العظيم..

وشغفت بالسمو الروحي في «الجبل السحري» لـ «توماس مان»، ذلك الجبل المشيد بأحجار الألم البشري.

إلا أنني شغفت خاصة بعالم الشعر. انتشيت بغزارة ويتمان، بفيض رامبو، بالسلخ المأساوي لبودلير، بسحر فيرلين، بجمالية ريلكه، بذكاء لإليوت، وبالحكمة القروية لفروست.

ولم تلبث كلاسيكيات الأدب الروسي التي لم أستسغها في المدرسة أن غدت قريبة إليَّ وحية: جمل تولستوي الصعبة والصلبة كالجرانيت، تأملات تشيخوف الطافحة رقة مثل أوراق الخريف، تحليقات دوستويفسكي المتوترة - كل ذلك جعلني أكتشف أخيرًا جمال اللغة الروسية وعمق تراثي.

وماذا عساي أقول عن بوشكين وليرمونتوف وبلوك ويسينين أو ماياكوفسكي؟ في المدرسة، كانوا يبدون لي بلا طعم كوجبة تقدَّم إليك باستمرار، وبفضل تاراسوف وبارلاس اللذين حطما صورتهم الرسمية، صاروا رفقائي الدائمين.

وبالمقابل، لم أكن أفهم باسترناك. كان بارلاس يمضي الساعات في قراءة وتقشير قصائده، ومع ذلك لم أمسك بخيط فكره داخل تلك المنظومة السديمية للوحاته الشعرية. كان شيئًا مخجلاً ألا أفهمه إلا قليلاً جدًّا. ولم أكن دعيًّا لأحمل باسترناك عدم الفهم هذا. كثيرون هم الذين يتظاهرون بالاستعلاء والاستخفاف قائلين «لا أفهم» ودون أن

يتجشموا عناء يعتبرون العمل رديئًا لأنه صعب عليهم. لم أتصرف على هذا النحو، اقتداء بصبر بارلاس. وذات يوم حدثت المعجزة، ومنذ ذلك الحين وهي تزداد وضوحًا أكثر فأكثر.

ألكسندر تفاردوفسكي، هو الآخر، كان يضايقني ببساطته المفرطة التي كانت تبدو لي قريبة من الابتذال. ومرة أخرى، يُكرِّس بارلاس الكثير من وقته ليشرح لي الوضوح العميق في أعماله. ومنذ ذلك اليوم وأنا أكن الاحترام العظيم لتفاردوفسكي. ولو كان يبدو لي أحيانًا أنه يفرض على نفسه قيودًا في الشكل. من المؤسف أن اسمه غير معروف تقريبًا في الخارج، كما هو شأن الكثير جدًّا من الشعراء الروس. لقد كنت أواصل تكويني الأدبي برعاية أساتذة بارزين أرسلهم إليَّ القدر، مواظبًا على الكتابة في الوقت ذاته.

والحقيقة أن اكتشافاتي الأدبية لم تنعكس في إنتاجي إلا قليلاً.

......

بفضل تاراسوف صرت أحرر ركنًا شعريًّا منتظمًا في صحيفة «الرياضة السوفييتية». كنت أكتب قصائد عن الكرة الطائرة، وكرة القدم، والملاكمة، وتسلق الجبال. نظمتها أيضًا

بمناسبة كل الأعياد: السنة الجديدة، فاتح ماي، يوم السككين، ويوم جنود الدبابات وهلم شعرًا. كان هذا النوع من شعر المناسبات منتشرًا كثيرًا في تلك الفترة ولا يزال موجودًا مع الأسف. بالنسبة إليَّ لم يكن للموضوع أية أهمية، مادمت أقوي عضلاتي الشعرية. وكان تاراسوف أروع مدرب، علمني اللعب بالأوزان والاستعارات.

ذات يوم، عشية فاتح ماي، طلبني تاراسوف على الهاتف باستعجال:

- جينيا، لقد جنَّ رئيس التحرير، عندما اكتشف أنك لم تذكر كلمة عن ستالين في القصيدة التي ستنشر غدًا، ولا وقت لاستبدالها بقصيدة أخرى.

- ما العمل إذن؟ سألته متخوفًا بدوري فقال:

- اسمع، يا جينيا، تفاديًا لإحراجك أستطيع ببساطة إضافة بعض الأبيات إلى قصيدتك.

- رائع، شكرًا لك.

لم يكن مهمًّا عندي تمامًا أن تنشر قصيدتي بأبيات شخص آخر عن ستالين.

هناك حادث مماثل وقع لإحدى قصائدي التي أرسلتها إلى جريدة النقابات «ترود» (العمل). أضيف إليها مقطع عن

ستالين دون استشارتي. وعندما أبديت احتجاجي دفاعًا عن شرفي الشعري، رَدَّ عليَّ المحرر ببساطة:

- لقد فعلت ذلك لأمرر أشعارك من الرقابة، فأي عيب في هذا؟

وبالفعل، أي عيب في ذلك؟

كنت منذ طفولتي أقدس ستالين وكنت على استعداد لمدحه. ولم يمض وقت طويل حتى استخلصت من كل تلك الحوادث العبرة التالية: لكي تنشر أشعاري دونما صعوبات أدرج دائمًا أبياتًا عن ستالين. ومن جهة ثانية بدا لي هذا أمرًا طبيعيًّا تمامًا.

وبذلك غدوت الشاعر الرسمي، المعتمد، لدى الصحف الموسكوفية وأعدادها الخاصة بمناسبة الأعياد التي تحتوي بانتظام على تجاربي الأسلوبية الرنانة الجوفاء.

كنت راضيًا عن نفسي وخيل إليَّ أني أواصل عمل ماياكوفسكي. وإذا كنت أقتفي أثر أحد فهي في الواقع آثار سيميون كيرسانوف، الشاعر الموهوب الذي كان يكتب كثيرًا للصحف مدرجًا في قصائده عناصر من التجديد الأدبي. بيد أن راعيي تاراسوف وبارلاس، لم يكونا راضيين عني. قال لي تاراسوف:

- جينيا، لقد تعلمت الكتابة، ولكن أن تكتب ماذا؟ هذا ما يجب عليك التفكير فيه الآن!

وأضاف بارلاس بنبرة حزينة:

- جينيا، هل أعطيتك كل هذه الكتب لتقرأها دون جدوى؟

التجأت إلى كيرسانوف الذي كنت أقتدي به آنذاك، مؤملاً أن أجد عنده مزيدًا من الفهم. قال لي وهو يهز بحزن رأسه الأشيب:

- لعلك تعتقد دون شك أنني معجب بأشعارك لأنها تشبه أشعاري، بل على العكس تمامًا: إنها لهذا السبب بالذات لا تعجبني على الإطلاق. اسمع: أنا شكلاني قديم، وليس لي إلا نصيحة واحدة أقدمها لك: ابتعد عن الشكلانية. إن القصيدة يمكن أن تكون إما بسيطة أو معقدة، ولكن يجب أن تتوفر على خاصية لا غنى عنها: هي أن تكون ضرورية لقرائها. إن الشعر الحقيقي ليس سيارة سباق جميلة تدور في حلقة مغلقة. يجب بالأحرى أن نقارنه بسيارة إسعاف تسرع عبر الشوارع لإنقاذ إنسان..

لقد أثرت فيَّ كلمات كيرسانوف ولكنها لم تغير شيئًا من طريقتي في الكتابة. كنت منطلقًا في اتجاه واحد مدفوعًا بقوة سلبية ولا أدري كيف أتوقف.

في عام 1952 نشر ديواني الأول: «مستطلعو المستقبل».

كـان غلافـه الأزرق مطابقًـا تمامًـا لمحتـواه. واسـتقبلته الصحافة بترحاب وحفاوة. إلا أنني عنـدما دخلـت يومًـا إلى مكتبة رأيت على أحد الرفوف «مستطلعيي» مـصطفين بنظـام كالجنود لم يتغيب منهم أحد.

وفجأة، جاء شاب وأخذ يتصفح دواوين مختلفة ثم تناول كتابي، فجمدت في مكاني بانتظار طافح بالأمل، غير أنه ألقـى نظرة على بعض الصفحات وأعاد الكتـاب إلى موضـعه قـائلاً للبائعة:

- ليس هذا دائمًا ما أبحث عنه. لي صديقة، لطيفـة جـدًّا، فقدت الثقة في الحياة. كنت أود أن أجد لها شيئًا يساعدها عـلى الاهتداء إلى طريقها، ما هذه الأشـعار؟ إنهـا مجـرد طبـول لا علاقة لها بالحياة!

انصرف الشاب وتركني مرتجًّـا مـن الأعـماق. عـدت إلى البيت ولما أعدت قراءة كتابي اتضح لي فورًا أنه لا يصلح لشيء ولا يفيد أحدًا. كل أوزاني واستعاراتي كانت تدور في الفـراغ. حاولت الكتابة بشكل جيد لأكون مهمًّا في عيون قرائي ولكـن الجمال الشكلي الذي حققته لم يزدني إلا غربة عنهم.

خرجت إلى الشارع المغطى بالثلج، وحيدًا، محبطًا، صادفت أناسًا مرهقين، عائدين من العمل بمؤونتهم في اليد. وعلى وجوههم بصمات حفرتها سنوات البناء والحرب، سنوات الانتصارات العظيمة والخداع الكبير. وفي نظراتهم المتعبة عجز عن الفهم رهيب. ومع ذلك لم تكن هذه الوجوه شريرة أو محبطة. بل كانت لطيفة تنتظر بخجل الطيبة من العالم. كان لهؤلاء الرجال ثياب متواضعة ولكن، في مشيتهم نوع من الشهامة والكبرياء. لأنهم لم يكونوا يحسون بمظهرهم. كان هؤلاء الناس قريبين إليَّ بكل تجعيدة من تجاعيد وجوههم، وبكل قطرة دم تجري في العروق الثخينة لأياديهم الكادحة.

لم يكن هؤلاء الناس بحاجة إلى جمل جميلة فارغة من المعنى. لقد سمعوا منها الكثير ولم يعودوا يثقون بها. كانوا يودون سماع كلمات بسيطة، شريفة، وحنون. كنت وأنا أتطلع إليهم أشعر بالخجل من كتابي ومن قصائدي، وشعرت بأني مذنب أمام العالم كله.

وقفت لأدخن سيجارة فوق جسر نهر موسكو، وفجأة اصطدمت يدي في جيبي بحزمة الأوراق النقدية التي استلمتها لقاء كتابي وفي سورة غضب ألقيت بها من فوق حاجز الجسر فحملتها الريح وتطايرت محومة في الهواء ثم

اختفت في الظلام البارد. كان سلوكًا صبيانيًّا بالطبع! ولكنني أردت بذلك أن أتحرر من أجرة أكاذيبي.

وكم شعرت بنفسي مرتاحًا بجيوب فارغة!

......

وظلت جيوبي فارغة لمدة طويلة. لم أعد أكتب شعرًا. قبلت في المعهد الأدبي ولو أني بدون بكالوريا. وعشت بمنحتي الدراسية. وبفضل كتابي قبلت أيضًا في اتحاد الكتاب السوفييت. لكنني لم أنخدع بهذه الأمجاد. كنت أعرف القيمة الحقيقية لقصائدي. ورفضت أن أكتب مثلها من جديد. كانت رغبتي الوحيدة أن أكتب بأسلوب مغاير وعن مواضيع مختلفة. والواقع أني أكتب لنفسي قصائد عن شكوكي وعن انتظاري لحب كبير وعن الفرق بين الحقيقة والوهم وعن معاناة الناس. ومن حين لآخر كنت أغامر بحمل إحدى هذه القصائد إلى إدارة التحرير، حيث لم أعد أستقبل بحماس.

ذات مرة، صاح في وجهي رئيس الركن الشعري لإحدى هذه الصحف قائلاً:

- ماذا جرى لك؟ إنك تكتب مثل عجوز متذمر. إننا بحاجة إلى شعر فتوة وتفاؤل وليس إلى مثل هذا النواح.

لم أكن بالعجوز المتذمر! كنت ببساطة قد نضجت. بينما كان مخاطبي لا يزال في مرحلة طيش الشباب. بالنسبة إليه كان التأمل مرادفًا للحزن والتشاؤم. إن النشاط المتفائل الذي لا يرتكز على أساس لا يمكن أن يكون محركًا للفعل الإنساني.

وقد وصف ذلك الشاعر سفييتوف وصفًا رائعًا بقوله:

«إن القاطرة التي تبذر بخارها في الصفير لا تذهب بعيدًا».

هذا النوع من الصفير الحماسي يعطي نتائج أسوأ من التشاؤم الشديد السواد.

لقد بقيت متفائلاً، لكن تفاؤلي لم يعد ورديًا. صار متشكلاً من عدة ألوان، بما فيها اللون الأسود. وفي ذلك كان يكمن صدقه. غير أنه كان لابد من النضال لانتصار هذا التصور عن التفاؤل؛ لأن نقاد الأدب عندنا كانوا آنئذٍ يدافعون عن نظرية «غياب أي نزاع في العالم الاشتراكي». كانوا يحاولون أن يظهروا أن النزاع في الحياة السوفييتية لا يمكن أن يوجد بين صالحين وأشرار بل بين صالحين وممتازين فقط.

فيما بعد، خضت نضالاً مكشوفًا ضد هذا التصور عن التفاؤل. ولكن كان لابد من أحداث كثيرة قبل أن يتحطم هذا التصور.

......

إن التفاؤل المصطنع كان لازمًا في كل مكان: وجوه عمال باسمة بطريقة ميكانيكية ووجوه كلخوزيين كانت تنتظرنا على أغلفة كل الكتب. قصص وروايات كانت كلها بنهايات موجبة للعبرة. رسامون يكرسون لوحاتهم كلها تقريبًا للولائم الحكومية وغيرها من المهرجانات الرسمية. ومسك الختام، فيلم يتوج هذا التيار، تصور لقطاته الأخيرة حفلاً ضخمًا للكلخوزيين وهم يرقصون ويغنون على خلفية محطة كهربائية.

منذ عهد قريب أتيح لي أن أتحدث إلى صاحب هذا الفيلم وهو إنسان ذكي ولا يفتقر إلى الموهبة. فسألته بصراحة:

- كيف سمحت لك نفسك بوضع مثل هذا المشهد في الفيلم؟

طبعًا، أنا نفسي كتبت قصائد من هذا النوع. إلا أنني كنت لا أزال فتى صغيرًا ولكن، أنت كنت رجلاً مثقفًا وجادًا.

ابتسم بحزن وقال:

- الأفظع من ذلك أنني كنت مخلصًا. اعتقدت أن عملي ضروري لبناء الشيوعية وفوق ذلك كنت مؤمنًا بستالين.

عندما نتكلم عن عبادة ستالين أفكر غالبًا في هذا الحديث. إذ لا ينبغي التسرع في إدانة جميع الناس الذين ساهموا بشكل أو آخر في هذه العبادة. طبعًا، كان بينهم كثير من المتملقين البسطاء والانتهازيين المضاربين بالأوضاع السياسية. لكن، بالنسبة للفنانين، كانت مدائحهم لستالين انعكاسًا لمأساتهم الداخلية أكثر مما هي تعبير عن الدناءة.

كيف أمكن أن ينخدع كثير من الناس الأذكياء والموهوبين؟

يجب أن أكرر مرة ثانية أن ستالين، في نظري، كان ذا شخصية قوية جدًّا بل وجذابة أيضًا. كان يعرف كيف يسحر كل المقربين إليه. لقد نجح في اجتذاب مكسيم جوركي وهنري باربوس. وحتى في عام 1937 خلال القمع الأكثر هولاً، عرف كيف يسحر رجلاً أكثر خبرة وأقل ميلاً إلى المدح مثل فوشتفانجير. أكثر من ذلك كان ستالين واعيًا بشعبية لينين الهائلة. كان يدرك حب الشعب السوفييتي لقائد ثورتنا. فبذل كل ما في وسعه لتزييف التاريخ، والإيهام بصداقة لينين العميقة له، ليفرض على وعي السوفييت الارتباط الوثيق بين اسمه واسم لينين. وذهب بعيدًا في هذا التزييف إلى حد أنه على الأرجح انتهى هو نفسه إلى الإيمان بوجود علاقات خاصة، مختلقة ومصطنعة، بينه وبين لينين.

لاشك أن ستالين كان معجبًا بلينين. فخطابه المأتمي الحزين عند تشييع جنازة لينين وقسمه الشهير الذي يبتدئ بـ «أوصانا الرفيق لينين وهو يغادرنا..» كان معبرًا عن إخلاص حقيقي وهو يقرأ كقصيدة نثرية.

كان ستالين إذن يريد أن يبدو في نظر الآخرين وفي نظره هو أيضًا بمثابة المتابع لعمل لينين. وقد نجح في مغالطة الآخرين وفي خداع نفسه أيضًا. ولم يلبث الاسمان أن اقترنا في ذهننا. حتى باسترناك ذاته ربط بينهما في إحدى قصائده الشهيرة.

ومع ذلك كان ستالين نقيضًا للينين. من الممكن تلخيص المحتوى العميق لفكرة مؤسس جمهورية السوفييت في هذا المبدأ الأساسي: «إن الشيوعية يجب أن تكون في خدمة الإنسان». بينما كان الاعتقاد الراسخ لدى ستالين على النقيض من ذلك تمامًا: «كل الناس يجب أن يكونوا في خدمة الشيوعية».

إن الستالينية هي النظرية التي ترى الناس مجرد دواليب آلية بسيطة في منشأة صناعية كبرى. وقد أعطت هذه النظرية، مطبقة في الحياة، نتائج مرعبة. في الدستور الستاليني الذائع الصيت (المعتمد عام 1935) نقرأ كلمات رائعة: «العمل في مجتمعنا هو قضية شرف وجرأة وبطولة». وفي الممارسة، كان العمل شيئًا يعلو على الناس. كان مؤلهًا وعلى سائر المواطنين

أن يقدموا له القرابين اليومية. واضطر الفنانون أيضًا لتقديم قرابين إلى هذا الإله المجرد «العمل» وإلى اختزال الحياة الروحية للأمة في وصف مظاهر «العمل» المختلفة. وهكذا أصبح الفولاذ البطل الرئيسي في روايات كثيرة، وكرست روايات أخرى لبناء بيت أو لزراعة القمح، كانت الكائنات الحية تلعب دورًا ثانويًا في هذه الأعمال. وهي، بالتالي، لم تكن حية. كانت لواحق تضفي على «العمل» قيمة.

كان الشعراء يقطعون البلاد طولاً وعرضًا لمشاهدة التشييدات الجديدة وتأمل الآلات الحديثة. أما الناس، المستخدمون لهذه الآلات، فلم يعنوهم كثيرًا.

آه، لو كانت الآلات تعرف القراءة!

كم كانت ستعجب بقصائد هذه المرحلة!

وبالنسبة للناس، فهي، للأسف، لا تمثل أية فائدة!

أما دور النشر فلم يكن يعنيها الأمر في شيء. فطبع الكتب لا يتحدد بالبيع، بل يرتبط فقط بوضعية الكاتب الرسمية ومكانته لدى السلطات العليا. فلا غرو إذا ما انهارت رفوف المكتبات تحت ثقل الدواوين التي لا يقبل عليها أحد.

وتشكل أشعار الحرب لقسطنطين سيمونوف وأعمال شتشيباتشوف الاستثناء الذي أكد هذه القاعدة.

في عصرنا لا يكفي أن تكون شاعراً فقط

أكيد، كان يصدر من حين لآخر، عمل غير متوقع من قلب هذه الأشعار الصناعية والكلخوزية. وهكذا كان لقصائد الشاعر الشاب فانشينكين، البسيطة والمؤثرة، عن حبه الأول، تأثير عميق وحقيقي، وتخوطفت الأشعار الأولى للشاب فينوكوروف. كانت أشعارًا عفوية، غير منقحة بشكل جيد ولكنها تشع بالحرارة المفتقدة في شعر الآخرين المنقح بشكل مبالغ فيه. إلا أن ذلك لم يغير شيئًا من الوضع العام. فقد غدا الشعر غير شعبي وصمت الشعراء القدامى، وإذا كتب أحدهم شيئًا، بين وقت وآخر، فإن ذلك كان أفظع من الصمت.

وثمة مآسٍ أعظم أيضًا.

لقد كان يضوي في معتقلات الاعتقال الستالينية شعراء روس بارزون مثل زوبولوتسكي وسميلياكوف، ونفي أيضًا الشاعر الشاب مانديل (كورجافين). لا أدري إن كان اسمه سيحتل مكانة بارزة في أنطولوجيا الشعر الروسي، إلا أنني متأكد أنه سيكتب بحروف ذهبية في تاريخ الفكر السياسي السوفييتي. إذ كان الشاعر الوحيد الذي، في حياة ستالين، كتب وألقى قصائد معادية له. وشجاعته هذه بالذات هي التي أنقذته تقريبًا، إذ اعتبر مجنونًا ولكنه نفي مع ذلك.

شعراء آخرون اقتدوا بمثال باسترناك وأنا أخماتوفا فتفرغوا للترجمة الأدبية. ولم تعد الأمسيات الشعرية على ندرتها تجتذب جمهورًا كبيرًا. ورغم لامبالاة كثير من الشعراء بنجاح أعمالهم لدى القرّاء كان لهم هدف فني: الحصول على جائزة ستالين.

شاركت مرة، وبالمصادفة، في لجنة اتحاد الكتاب التي تدرس مختلف الترشيحات لهذه الجائزة. فشعرت بالتقزز والاشمئزاز من الطابع التجاري للمعايير المطبقة. وتملكني إحساس بأن الجميع نسوا مسألة أساسية في الأدب: هل كانت هذه الأعمال المرشحة مفيدة لأحد؟

أذكر كيف انتفض تفاردوفسكي (رئيس تحرير مجلة: العهد الجديد «نوفي مير» وشاعر يحظى بالتقدير عالميًّا) من مقعده عندما سمع مديح شاعر رشح نفسه لجائزة ستالين:

- أؤكد لكم أنني قادر على ترويض أي ثور في قريتي كي يكتب قصائد رائعة أفضل من هذا المترشح!

لقد ألغي هذا الترشيح بالفعل. ولكن، هل تتصور أي إحساس كان لضحية هذه الكلمات المدمرة جدًّا، والصادرة عن هذا الرجل الحجة في الشعر باعتراف الجميع؟ أتظنون أنه أحس بالخجل؟ أو أنه بدأ يشك في نفسه؟ لا شيء من ذلك على الإطلاق. كان يتجول في مقر اتحاد الكتاب مهمًا: «إن لم يكن في هذه السنة، ففي السنة القادمة، ولكنني سأحصل حتمًا على جائزة ستالين!».

وفي ذلك المساء، رأيت في أحد المطاعم شاعرًا آخر «رسب» في تلك السنة، كان سكران تمامًا، يزعق ملء رئتيه «منحوها لشاعر ميت! بماذا ستفيده؟ ولكن أنا حي! فأنا الذي أستحقها!». وكان على حق، حسب منطقه، فجائزة ستالين كانت تعني الكثير لشاعر حي. كانت تعني إعادة طبع كتابه فورًا بنسخ ضخمة، ومقالات تقريظية في كل الصحف، ونشر صوره في كل المجلات. كانت تعني أيضًا وسيلة لنيل وظيفة رسمية، والحصول على سيارة خاصة، وشقة جيدة، وغالبًا على «داتشا» (بيت خشبي ريفي).

فهل نستغرب إذا كان هؤلاء الناس غير مبالين بأن تقرأ أو لا تقرأ هذه الكتب المكافأة بالجائزة؟ ما كان يعنيهم أولاً وأخيرًا - هو الجائزة.

لا أقول إن كل الأعمال الفائزة بالجائزة في تلك الأيام كانت مكتوبة بنية مبيتة ومغرضة. كان ثمة أيضًا كتاب شرفاء. ولكن بضاعة الانتهازيين كانت رائجة.

وبينما كان النقاش محتدمًا في اتحاد الكتاب حول الأوسمة الذهبية والفضية، كان يتجول على أرصفة شوارع موسكو، بمشيته العسكرية، الشاعر الرائع بوريس سلوتسكي.

لقد نشرت له قصيدة واحدة، ولم تنشر إلا عام 1940 أيضًا. ومع ذلك كان أكثر هدوءًا وثقة بالنفس من جميع أولئك المرشحين والفائزين الهستيريين. ومع أنه في الخامسة والثلاثين من عمره لم يكن مقبولاً بعد في اتحاد الكتاب. كان بالكاد يكسب قوت يومه، من كتابة بعض التعليقات القصيرة للإذاعة. ولا يملك شقة. كان يسكن في غرفة ضيقة جدًا، ويقتات بالمعلبات الرخيصة والقهوة. بيد أن مائدته كانت حافلة بقصائد مريرة وعنيفة وبودليرية أحيانًا. قصائد لم يعرضها على أية إدارة تحرير حتى لا يهدر وقته.

أذكر أنني، ذات مرة، اشتكيت له من أن أفضل قصائدي رفضت. فأشار بصمت إلى مائدته الحافلة بالمخطوطات ثم قال: «إن جسدي كله مثقوب بالرصاص، لم أحارب على الجبهة لتظل أشعاري مكدسة فوق المائدة. أنا متأكد أن هذا سيتغير، يومنا غير بعيد، ويجب أن تكون لدينا أشياء في قلوبنا وعلى مائدتنا لهذا اليوم المنشود».

تأثرت كثيرًا بخطاب سلوتسكي الهادئ. فأقلعت عن تعذيب نفسي من أجل قصائدي غير المنشورة. وواصلت الكتابة مفكرًا في المستقبل أكثر من الحاضر.

......

ورغم ذلك لم ينسجم مزاجي كثيرًا مع هذا الوضع. لم أستطع كبح جماح نفسي من التدخل في النقاشات الأدبية، لفضح تبجح وتشدق أولئك الفائزين الأدعياء. لم تكن لي أية خبرة خطابية. كانت مجرد صرخة نابعة من القلب أكثر مما هي خطبة. ذات مرة، اختنق صوتي، في مهاترة نقدية، مثل ديك صغير، فنزلت من المنصة، محمرًا خجلاً، وسط ضحكات القاعة.

مرة أخرى، بينما كنت أجادل شاعرًا، نال مرتين جائزة ستالين وأغرق صحيفة «البرافدا» (الحقيقة) ببضاعته الرديئة، قاطعني رئيس الجلسة قائلاً بحدة: لقد تجاوزت الوقت القانوني المحدد للتدخل..

كان هذا الرئيس شاعرًا مشهورًا، عرفته منذ طفولتي، عن طريق الصحافة. كان وجهه، وشعره الأبيض الجميل، أليفًا لدينا مثل وجوه القادة السياسيين. ونزلت من المنصة مندهشًا تمامًا: كانت ساعتي تشير قطعًا إلى أنه قد بقي لي خمس دقائق على الأقل. فهل كذب الرئيس فعلاً؟ لم أجرؤ على تصور ذلك. لم أكن أعتقده قادرًا على الكذب. وفيما بعد علمت أنه كذب حقيقة..

في اتحاد الكتاب اكتسبت صداقات كثيرة. كان معظم أعضائه شرفاء. لكنني لا أجهل أن كثيرًا من وظائف الإدارة كان يتولاها وصوليون لا شرف لهم. وعلى سبيل المثال: كان رئيس قسم المسرح، الحائز على كل الجوائز المحتملة، «يكتب أعماله» مستعينًا بالأجراء الأدبيين. كان هؤلاء الأشخاص يوجهون «سياستنا الأدبية». فجلبوا إليها «بدعًا» غير متوقعة ومن أكثرها إثارة للاشمئزاز، مثل مناهضة السامية.

من الخطأ بل والعبث حتى الادعاء بأن مناهضة السامية ملازمة لطبع الشعب الروسي.

إن معاداة السامية غريبة عنه مثلما هي غريبة عن أي شعب آخر. كانت مناهضة السامية دائمًا وفي كل مكان مغروسة اصطناعيًا من الخارج، لخدمة مصالح حقيرة. لقد فعلت القيصرية المستحيل لغرسها في روسيا وتوجيه الغضب الشعبي نحو اليهود. في بعض المراحل من حياة ستالين، بعثت، لأسباب أخرى، هذه الممارسة المشؤومة.

كانت مناهضة السامية مقيتة دائمًا بالنسبة إليَّ؛ لأنني أومن بتعاليم لينين أكثر من أي شيء في الحياة. ثم، لأنني روسي أصيل. غير أن الصداقات بين الشباب غالبًا ما ترتبط بالمصادفات. كانت لي إذن علاقة بالشاعر الشاب ك.. الذي أقل ما يقال عنه إنه لا يشاطرني الرأي حول هذا الموضوع. بل كان يحاول إقناعي من حين لآخر. ليس من قبيل المصادفة، حسب رأيه، أن ينتسب أغلب المنشقين عن الحركة العمالية من «البوند» حتى تروتسكي، إلى نفس هذه السلالة المشبوهة. وكان يلومني على «قصر نظري السياسي». بعد إحدى المجادلات الليلية، بات عندي، وصباح الغد، صحوت على صيحاته ورقصاته. كان مرحًا يرقص رقصة إفريقية، ملوحًا بجريدة الصباح.

كان بالصفحة الأولى بلاغ طويل عن اكتشاف مؤامرة «القمصان البيضاء» واعتقال الأطباء بتهمة محاولات تسميم ستالين. صاح ك.. مزهوًا: «وإذن، من كان منا على حق؟ كلهم يهود!». أعترف أنني أنا أيضًا صدقت بجناية الأطباء المعتقلين. لم أشعر بأي فرح. ولم أر في ذلك أي تسويغ للنظريات العنصرية. ولكنني كنت ناقمًا على هؤلاء الرجال الذين كانوا حسب الاتهام يستخدمون علمهم للقتل بدل العلاج. ولم أقتنع بأن يكون الأمر مجرد خطأ بسيط.

في المساء ذاته، ذهبت وزميلي ك.. لمشاهدة فيلم قديم عن الثورة، واتفق أن عرض فيه ذبح اليهود في أوديسا، في عهد

القيصرية. على الشاشة كان حشد من المجرمين وأصحاب الحوانيت يهتفون ملء حناجرهم بشعارهم الحقود: «اقتل اليهود! أنقذ روسيا!». وعلى عصيهم الملوثة بالدم كان يرى بوضوح شعر أطفال يهود صغار.

– لا تحب أن ترى هذا ثانية مع ذلك؟

تنحى عني قليلاً وقال ببرودة:

– اسمع، يا جينيا! إننا جدليون، لا يجب أن نرفض الماضي كله.

كان له صوت رنان غريب وفي عينيه بريق حقود، جدير بالشبيبة الهتلرية. ولكن، على صدره كانت تلمع شارة الكمسمول، منظمة الشبيبة الشيوعية اللينينية! لقد تربى في بلاد السوفييت التي تستند إلى الفكرة الأكثر أممية في العالم. وعلى مكتبه كانت صورتان: واحدة للينين والأخرى لماياكوفسكي. فكيف أمكن لهذا الفتى، الذي يظن أنه شيوعي، أن يكون معاديًا للسامية؟ كيف نجح في أن يوفق في ذهنه بين تصورين متعارضين ومتناقضين تمامًا مثل الشيوعية ومناهضة السامية؟

إن أكبر جريمة لستالين ليست هي الرعب والاعتقالات وإبادة ضحاياه. كلا: إن جريمة جرائمه هي تفسخ النفوس البشرية. وهو بالتالي المسئول عن الانحطاط الأخلاقي لهذا الشاعر الشاب ك..

أكيد، أن ستالين لم يمتدح أو يسوغ نظريًّا مناهضة السامية. ليس أكثر، على كل حال، من أنه لم ينشئ في النظرية ضرورة الوصولية والوشاية والعسف البيروقراطي والوهم، واحتقار الإنسان وتزييف التاريخ. إلا أن ممارسته أيقظت كل ذلك وشجعت عليه. وأدى هذا المسلسل ببعض الناس مثلك.. إلى التصرف والتفكير كأسوأ المناهضين للشيوعية، منتحلين لقب حراس الصفاء الشيوعي.

في حالات معينة، مثل حالة ك.. كان هذا الخداع جليًّا. وعلى إثر حديثنا في السينما، فهمت أنه أخطر على الشيوعية من أسوأ أعدائها في الغرب. وشخص كهذا، عدو إيديولوجي، لا يمكن أن يكون صديقًا. ولذلك قطعت كل صلة شخصية معه. بينما يتصرف أمثاله على العموم بشكل معكوس: ما إن يكون لهم أعداء شخصيون حتى يبلغوا عنهم «كأعداء للشيوعية». وأي انتقاد لسلوكهم كانوا يعتبرونه حالاً بمثابة «هجوم على الشيوعية».

باختصار، إن هؤلاء الناس الذين يقللون باستمرار من قيمة الفكرة اللينينية العظيمة، اعتبروا الشيوعية احتكارهم الخاص.

مرات كثيرة، أخذ عليَّ الشاعر ك.. غياب «اليقظة الثورية». ليس هذا صحيحًا.

كنت يقظًا بطريقتي الخاصة، طالما راقبته وأمثاله. ورأيت بفزع كيف كانوا يبنون البيوت الجديدة في قلب موسكو، وينعمون بالترف والبذخ إلى جانب عمارات مزدحمة بالسكان، حيث تتكدس عدة عائلات في شقة واحدة. وتابعت بيقظة كيف كانت هذه النخبة البيروقراطية تزدرد بشهية تلك الحلقات ذات النبرة المعادية للسامية والمموهة بالكاد والمنتشرة في صحافتنا أكثر فأكثر. رأيت كيف كانوا يراكمون امتيازاتهم على مرأى العمال ذوي الأجور الهزيلة. كان هؤلاء الموظفون المحظوظون أصلاً يحصلون من الأملاك العامة، فضلاً عن رواتبهم، على «حزم زرقاء» هدايا من النقود غير المدرجة في الحسابات وهي غالبًا أكبر من الأجر نفسه. وكنت أغتاظ من تصورهم عن المجتمع السوفييتي. كانوا يقسمونه إلى صنفين: مجتمع «الناس اللي فوق» أي هم وأضرابهم. ومجتمع «الناس اللي تحت» أي كل الآخرين. ولم أجد في أي كتاب شيوعي مسوغًا لمثل هذا التصنيف. ومع ذلك بقيت مؤمنًا ببراءة ستالين. لقد أحببته فعلاً وكنت غير قادر على أن أنسب إليه عملاً دنيئًا أو أعتبره مسئولاً عن دناءة الآخرين. ولكن، بين وقت وآخر، كان يهمس صوت في داخلي: «أنت تحب ستالين وتؤمن به، لكن، انظر حولك: ها قد عرض صوره في كل مكان. وها قد أوعز بوضع مسرحيات وأفلام عنه. وما من

صحيفة إلا وتبجل اسمه يوميًا مائة مرة على الأقل ولا تخلو أصغر مدينة من تماثيله البرونزية أو الحجرية. هل كان لينين يسمح بمثل هذه العبادة لشخصيته؟ قد لا يكون إذن ستالين هذا مثاليًا كما تتصوره؟ لعله هو ذاته مسئول عن كل هذه القذارات التي تشمئز منها؟». إلا أنني كنت أرفض الإصغاء لهذه الهمسات المحبطة.

كان شيئًا مريعًا ألا أؤمن بستالين.

وظل صوت الضمير الذي أردت طرده من داخلي يجتاحني باستمرار.

لم أستطع كتابة شيء بأسلوب ذلك العهد. كتبت أشعارًا خاصة، مُعتبرًا إياها بمثابة احتجاج على الشعر الرسمي. حملتها إلى بوريس سلوتسكي، فقال لي بعدما قرأ مجموعة من قصائدي عن الحب:

- جميل جدًا، ولكن، لكي تصبح شاعرًا في عصرنا لا يكفي أن تكون شاعرًا فقط.

ولم أفهم يومئذٍ ماذا كان يعني بذلك.

دموع الخوف على المستقبل

على حين غرة، وقع حدث هز روسيا كلها: في يوم 5 مارس 1953 مات ستالين.

لم أستطع أن أتصوره ميتًا. كان جزءًا مني ولم أفهم كيف يمكن أن نفترق يومًا. استحوذ على الناس جميعًا نوع من الحذر. فقد تعودوا أن يفكر ستالين نيابة عنهم. وبغيابه شعروا بالضياع.

كانت روسيا كلها تبكي. كانت دموعًا صادقة. وربما كانت دموع خوف على المستقبل. وبكيت أنا كالآخرين.

أذكر الاجتماع المؤثر الذي عقده الكتاب تكريمًا لستالين. كان بعضهم يغص بالدموع فلا يستطيع إلقاء مرثيته. حتى تفاردوفسكي، ذلك الرجل العظيم والقوي، كان يضطرب وهو يقرأ..

لن أنسى أبدًا كيف كنا نسير نحو تابوت ستالين. كان يتجمع من كل الشوارع مستنقع بشري، متجهًا نحو ساحة «تروبنوي» لينحدر بعد ذلك إلى دار السوفييتات، حيث يعرض جثمانه.

كنا عشرات وعشرات الآلاف من البشر المتزاحمين. كانت جماهير غفيرة، حتى إن أنفاسها شكلت سحابة حقيقية بيضاء. ظلت هذه السحابة، في ذلك اليوم القارس من مارس، معلقة فوق الرؤوس وهي تنسل من فوق الأشجار الجرداء التي كان يبدو كأنها تبكي هي الأخرى. كان مشهدًا غريبًا حقًا..

كانت هذه الجموع العمياء تدفعني مثل قطعة خشب مترنحة وضعيفة فوق الماء. كانت تحملني باتجاه عمود الكهرباء مباشرة. وشعرت بهذا الشيء المعدني يزحف نحوي بلا رحمة. وفجأة، صرخت طفلة صغيرة مضغوطة إلى عمود الضوء صرخة مفزعة. لم أسمع صرختها وسط العويل والتأوهات ولكن رأيت على محياها صورة لا تنسى لنهاية العالم.

أحسست في جسدي بانقصاف عظامها الهشة فأغمضت عيني رعبًا حتى لا أرى النظرة الزرقاء لهذه الطفلة المحتضرة. وعندما فتحتهما، وجدتني بعيدًا عن عمود الكهرباء. أبعدتني

بأعجوبة موجة بشرية. ولا أثر للطفلة الصغيرة، اختفت تحت الأقدام. رجل آخر، كان يتخبط في مكانه، باسطًا يديه كمصلوب، ومتوسلاً دون جدوى إنقاذه من الزحام. كان السيل يجرفني باستمرار. وفجأة، شعرت بشيء طري، تحت قدمي. لم أدرك إلا بعد لحظة أنني أمشي فوق جسد بشري. دفعت ساقي فزعًا وبقيت معلقًا وسط الحشد المنحدر بلا انقطاع. ومرت لحظات طويلة قبل أن تطأ قدماي الأرض.

لقد أنقذتني قامتي الطويلة. أما قصار القامة فكانوا يختنقون قبل أن تدوسهم الأقدام.

وذلك لأننا سقطنا في مصيدة حقيقية.

كانت شاحنات عسكرية، تقف صفًّا متراصًّا، وتسد علينا طريق المرور.

وكان الموج البشري يتكسر عليها بعنف مثل جرَّاف الثلج.

- «أزيلوا الشاحنات! أزيلوا الشاحنات!» صاح الحشد مذعورًا.

فرد عليه ضابط شاب من الميليشيا مائل إلى الشقرة كان ينظر إلى هذا المشهد دامع العينين:

- «لا أستطيع شيئًا! ليس لديَّ أوامر!».

كانت جوانب شاحنته ملوثة بالدم، والنساء والرجال يتحطمون عليها أمام ناظريه ويسمعون قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة: «ليس لديَّ أوامر!».

ولم ألبث أن شعرت في داخلي بانفجار حقد وحشي ضد تلك البلاهة العجيبة والطاعة البشرية التي أثمرت: «لا أستطيع شيئًا! ليس لديَّ أوامر!».

ولأول مرة في حياتي، انصبَّ كل هذا الحقد على الرجل الذي كنا ذاهبين لتشييع جنازته. وفي هذه اللحظة بالذات أدركت أخيرًا: أنه هو المسئول، هو الذي أحدث هذه الفوضى الدموية لأنه رسخ في أذهان الناس هذا الانقياد الآلي وهذه الطاعة العمياء للأوامر الصادرة «من فوق».

لا أدري من أين واتتني القوة. أحيانًا يخلق اليأس طاقات تفوق قدرة البشر. لذلك صرخت ملء رئتي: «أقيموا سدًّا، أقيموا سدًّا!». كأنني أردت إعادة النظام، وحدي، إلى الجمهور. لم يستمع أحد إليَّ ولم يفهم أحد معنى لكلامي. وعندئذٍ أخذت أمسك بأيدي الواقفين حولي وأشبكها رغمًا عنهم. كنت أقذفهم بأفحش شتائم اللغة الروسية، التي تعلمتها أثناء عملي في البعثة الجيولوجية.

وسرعان ما حدثت المعجزة. لا أدري من أين انبثق فتيان آخرون طوال القامة فأرغموا جيرانهم مثلي على التماسك بالأيدي ليشكلوا سدًّا يوقف تدفق السيل. ولما لاحظ الناس أخيرًا أن أحدًا ما يشرف على النظام، بدؤوا يهدِّئون من روعهم وكفوا عن تصرفاتهم الحيوانية. وأمر فتى قوي البنية من أترابي بحزم:

«ضعوا النساء والأطفال فوق الشاحنات!».

وأخذ الرجال، دون انتظار موافقة ضباط الميليشيا، يرفعون النساء والأطفال فوق الشاحنات العسكرية. كانت النساء المذعورات، يتجادلن صائحات بهستيرية. فاحتضن الضابط الشاب المائل إلى الشقرة إحدى النساء الباكيات، وغطى وجهها بقبعته، لكي يهدئ من روعها، كأنه يحاول أن ينسيها الكابوس الذي تعانيه. كان يلاطفها برعونة وحياء كطفل يطلب المغفرة. واضطربت المرأة قليلاً ثم هدأت. وتحولت فرقتنا الفتوية إلى شرطة نظام حقيقية. وهكذا مهدنا الطريق، بالضرب والشتائم، وتقدمنا إلى الأمام، حيث كان الحشد لا يزال يخبط خبط عشواء.

وشرعت الميليشيا التي كانت إلى ذلك الحين سلبية تمامًا تساعدنا. وما لبث المد البشري أن تحول إلى موكب جنائزي.

- أنت، يا رفيق! ناداني مساعد من الميليشيا، يجب أن تنخرط في الميليشيا. إننا بحاجة إلى رجال من أمثالك.

- سوف أتذكر عرضك يومًا! أجبته بهدوء وأنا أغادر الشارع المزدحم بالموكب.

لم أعد راغبًا في رؤية ستالين في تابوته. ذهبت إلى بيتي، صحبة فتى ناضل باستماتة لوقف تدفق السيل البشري. وفي طريقنا إلى البيت اشترينا زجاجة فودكا. كنا نود أن نعبها عبًّا لننسى. وفي البيت سألتني والدتي: رأيت ستالين إذن؟ فقلت لها بإيجاز وأنا أقرع الكأس مع نديمي: أجل، رأيته.

ولم أكذب على والدتي: لقد رأيت ستالين فعلاً، ذلك اليوم.

وتلك الفوضى الدموية التي رافقت جنازته، ألم تكن هو؟!

رايتنا نقية ولو أنها بين أيدٍ قذرة

كان اليوم الذي دفن فيه ستالين منعطفًا في حياتنا.

منذ ذلك اليوم، أدركنا أن أحدًا لم يعد يفكر من أجلنا. بل بدأت أشعر أن أحدًا لم يفكر من أجلنا أبدًا. على كل حال، كان علينا، من الآن فصاعدًا أن نفكر كثيرًا ونتعمق في التفكير.

كانت دوامة الأحداث تحطم عاداتنا العقلية يومًا بعد يوم. وأكدت أن عدة مشاكل خطيرة قد نضجت في روسيا وأن أحدًا لن يحلها إذا لم نحلها نحن.

وجاء رد الاعتبار لأطباء مؤامرة «القمصان البيضاء» دليلاً جديدًا، لمواطني الذين صدقوا نبأ إدانتهم بالإجماع تقريبًا، على الخطر الناجم عن الثقة العمياء بالحقائق الصادرة «من فوق».

وإذا كان الشعب الروسي قد حمل على السذاجة فإنه سرعان ما فتح عيونه على العقبات. ثم كانت قضية بيريا. كم تكلم هذا الرجل عن الشيوعية بأسلوب مؤثر. بل وأشاد بها على قبر ستالين! مع أن بعض الموسكوفيين يتذكرون أنهم رأوا، منذ وقت غير بعيد، وجهه الشبيه بنسر كاسر مغطى نصفه بخمار أسود، وملتصقًا بزجاج سيارته، عندما كان يسوقها ببطء جوار الأرصفة بحثًا عن امرأة جديدة لنزواته. بالنسبة لهذا الرجل لا وجود لقانون ولا لأخلاق. إن الرصاصة التي أطلقت على رأس بيريا كانت رصاصة عادلة. غير أنها عدالة متأخرة مع الأسف. وأظن أن العدالة كقطار يصل دائمًا في وقت متأخر. ثم إن أوائل من رد إليهم الاعتبار بدؤوا يعودون من معسكرات الاعتقال السيبيرية البعيدة. وحملوا معهم من هناك حكايات مثيرة عن مصائبهم الشخصية وشهادات حية على الظلم الممارس في العهد الستاليني.

ولم تستطع خطب مالينكوف، هذا الرجل ذو الوجه المخنث والإلقاء المسرحي، أن تخفف من تخوفاتنا، ولكي يكتسب شعبية، كان يعدنا بمزيد من الغذاء والكساء ولكن الأمر لم يعد بالنسبة إلينا متعلقًا بذلك. قال لي جاري، العامل ساخرًا:

– حسنًا، سنأكل «الآيس كريم» حتى التخمة، ونتطاوس في ثياب جديدة، ولكن إلى أين نسير بعد ذلك؟

كان الشعب الروسي يريد أن يسمع كلامًا جديًا وصريحًا عن حياته. و«الحياة» لديه لم تنحصر يومًا في مشاكل التغذية أو الكساء. إن «الحياة» بالنسبة للروس هي قبل أي شيء الإيمان بالمستقبل. كنت في غاية الحيرة والقلق. فلم أستطع ترتيب أفكاري عن ستالين، واستمر شعوري الباطني على مثاليته رغمًا عني. كنت عاجزًا عن تقدير حجم جرائمه واستيعاب كل الحقيقة التي تغاضيت عنها زمنًا طويلاً. وفي الوقت ذاته كنت رازحًا تحت عبء الشعور بالمسئوليات الجديدة الملقاة على عاتقي. وليس هذا ادعاء كما قد يتبادر إلى ذهن القراء، فالشاعر في روسيا لا يلعب الدور نفسه الذي يلعبه الشاعر في الغرب. إن كلمة «شاعر» في اللغة الروسية تكاد ترادف كلمة «مناضل».

لم يكن للشعر، في أي بلد من العالم، مثل هذا التقليد في الالتزام السياسي. وليس من قبيل المصادفة أن يعتبر الروس دائمًا شعراءهم بمثابة قادة روحيين و«أمناء على الحقيقة».

إن بوشكين، هذا الشاعر الغنائي الرقيق، يجيد كتابة نداءات ملتهبة، كانت مواثيق ثورية حقيقية للشبيبة التقدمية في عصره. ومع أن الأفكار فيها لم تعد جديدة، فهذه النداءات لم تتقادم ولم تزل تحتفظ بكثير من الحقائق الصالحة لجيلنا. وحتى ألكسندر بلوك، ساحر الشعر الحميمي، كان أحيانًا

ينسى ذلك السر الخالد الذي أغرم به -أي المرأة - ليرفع صوته الشعري القوي دفاعا عن شعبه.

وماذا عساي أقول عن ماياكوفسكي، الذي جَسَّدَ هذه التقاليد كلها في شخصيته العملاقة، كشاعر ثوري، واستطاع أن يثبت بحق أن ريشته أقوى من الحربة!

كل الطغاة، في روسيا، اعتبروا الشعراء أعداءهم الألداء، كانوا يخشون بوشكين (اسمه هذا مشتق من المدفع - المترجم) وترتعد فرائصهم أمام ليرمونتوف ويخافون من نيكراسوف. ونيكراسوف بالذات، هو الذي وجه في إحدى قصائده هذا المقطع الشهير:

لست ملزمًا بأن تكون شاعرًا
ولكن أن تكون مواطنًا
فذلك هو واجبك!

جمعت أنا بين الصفتين معًا: الشاعر والمواطن. لذلك أردت الخروج من ملجأ الشعر الغنائي الذي بقيت سجينًا فيه إلى غاية موت ستالين. شعرت أنه ليس من حقي أن أزرع حديقة صغيرة من الشعر الحميمي. وبدا لي شيئًا غير أخلاقي أن أصف الطبيعة والنساء والتأوهات الداخلية بينما الناس حولي مثقلون بالأعباء. وأثبت لي مثال كبار الشعراء الروس

أن هذا القرار لا ينطوي على أية تضحية فنية. بيد أن الرغبة في التزامي بالمعركة لم تكن كافية. لقد توهمت، في حماسة الفتيان، أنني كنبي ينادي بالحقيقة التي كان ينتظرها الشعب مني ولم أعرف ماذا أكتب. (بين رغباتي وميولي الداخلية وإمكانياتي الحقيقية كانت توجد هوة لم أستطع ردمها). وقلت لنفسي: ربما لا وجود لكل هذه المعاناة إلا في موسكو، هذه العاصمة التي غالبًا ما يغرق الناس فيها بأمواج الاضطرابات السياسية. لعل التوازن الروحي موجود داخل روسيا؟

عدت إذن إلى مسقط رأسي، إلى زيما، في سيبيريا، مؤملاً التخلص فيها من تمزقاتي الداخلية والعثور على الهدوء الضروري للتفكير.

للأسف، حتى قبل وصولي إليها، تأكدت أنه هروب مستحيل، إذ إن رفقائي في السفر، من المهندسين المعماريين والزراعيين والكلخوزيين، الذين صعدوا إلى مقصورتي مصادفة في المحطات، كانوا جميعًا يطرحون الأسئلة ذاتها. وكأنهم متفقون عليها سلفًا. وفي زيما أيضًا، كان أعمامي، العمال البسطاء، يسألونني باستمرار عن أحداث موسكو وعن مستقبلنا. وهكذا، بدلاً من الاهتداء، في مسقط رأسي، إلى جواب للمشاكل التي كانت تؤرقني، واجهت فيها أسئلة جديدة. وقد فتح هذا عيني على بداية: إن روسيا كلها من

البلطيق إلى المحيط الهادي، قد شرعت في التفكير والبحث عن طريقها.

في الصحافة والأدب أقحم بطل جديد تمامًا هو «المواطن السوفييتي البسيط». على شرفه ألفت الأغاني وصنفت الكتب وصورت الأفلام. وأخذوا يفتخرون به في الخطب السياسية. في حين أن هذا «المواطن السوفييتي البسيط» كما اكتشفت خلال رحلتي، لم يكن بسيطًا إلى هذا الحد. فأحببته أكثر من ذي قبل.

شعرت باضطراب روحي يسري عميقًا في عموم روسيا وحاولت ترجمته في قصيدة طويلة بعنوان «محطة زيما». قلت فيها إن طاقة الشعب الروسي الكامنة والهائلة آخذة في التحرر وإن الناس بدؤوا ينظرون إلى بعضهم البعض بلا ريبة أو حذر ويناقشون مشاكلهم الحيوية.

......

وفي عام 1954، عندما عدت إلى موسكو، أدركت أن خطرًا كبيرًا يتهدد بلادي. بين الإيمان الأعمى والكفر التام لا توجد إلا خطوة. وكان البعض، لاسيما الشباب، على وشك الإقدام عليها. مساء ذات يوم، حين كنا نتناقش ونقرأ الشعر أمام جماعة من الطلبة، إذا بفتاة في الثامنة عشرة من عمرها

تصيح بصوت ستيني متعب: «إن الثورة ماتت!» فردت عليها فتاة أخرى من أترابها، ذات وجه طفولي مستدير وضفيرة كثيفة شقراء وعينين تتريتين رائعتين: «ألا تخجلين من قول مثل هذا الكلام؟ إن الثورة لم تمت! ولكنها مريضة فقط ومن الواجب مساعدتها على الشفاء!».

كانت هذه الفتاة هي بيلا أخمادولينا، الشاعرة ذات الموهبة الرقيقة والسحر الذي لا يقاوم، وقد جاءت لتواصل تقاليد الشاعرات الروسيات، مثل أنا أخماتوفا ومارينا تسفيتايفا، وهي التي قرأت عليها المقاطع الأولى من قصيدتي «محطة زيما». وأمام عينيها الجميلتين شرحت أن من الضروري إنقاذ الشبيبة من الكفر والكلبية، بتطهير مثلنا العليا الثورية، وأن واجبنا، نحن الشعراء، تزويد كل هؤلاء الشباب، بالأسلحة الإيديولوجية لاستخدامها في معاركهم من أجل المستقبل. وفهمتني عيون بيلا أخمادولينا وشاطرتني الرأي. ولم يمض وقت طويل حتى صرنا زوجين..

ولم يلبث الشعر الغنائي أن حطم حواجز المحرمات في المرحلة الستالينية، واكتسح أعمدة الصحف والمجلات. بيد أنه بدا صبيانيًّا قليلاً ولم يحالفه نجاح كبير. ولا ريب أن هذه العهود من التحولات العظيمة لا يناسبها العزف على القيثارة بل يفضل عليها صوت البوق. بعد صمت طويل، أصدر

مارتينوف الذي أوسعه النقد الستاليني شتمًا وذمًا لبضع سنوات خلت، مجموعة شعرية، وجدت فيها الشبيبة، من خلال الاستعارات والمبالغات والتضمينات، ما كانت تود الاستماع إليه. كان مارتينوف يظن أنه يعزف على القيثارة فإذا به يكتشف مندهشًا أن قراءه كانوا يسمعون صوت البوق.

فقال مستخلصًا من ذلك: «أي عصر مدهش هذا، حيث يحدث التناغم الغنائي أمواجًا وأصداءً تتجاوز توقعات الشاعر!».

وبدأ بوريس سلوتسكي، هو الآخر، ينشر بعض قصائده. وظلت كثير من أعماله تصطدم بحاجز الرقابة ولكنها كانت تتداول من يد إلى يد ومن فم إلى أذن مما زاد في شعبيته. وأخذت، أنا بدوري، أكتب قصائد سياسية متخوفًا دائمًا من السقوط في البلاغة الأدبية. ذات مساء، حمل إليَّ صديق مجموعة أعمال لشعراء ثوريين. حينما قرأتها شعرت من جديد بأن كلمات «الشيوعية» و«الثورة» و«سلطة السوفييت» يمكن أن يكون لها وقع غنائي رائع، عندما تلقى بصدق وفي سياق ثوري حقًّا. وهكذا كتبت قصيدتي السياسية الأولى التي نددت فيها «بالكلام المرصع» والمصطنع للعهد السابق وبالطابع الآلي للأوامر الموجهة إلى الجمهور من مكبرات الصوت، أثناء استعراضات فاتح مايو في الساحة الحمراء.

الهدوء!

رصوا الصفوف!

لا نرى الورود؟

أين هي الورود؟

هذه القصيدة تجولت بين كثير من قاعات التحرير قبل أن تقع، لا أدري كيف، بين يدي الشاعر ك.. الذي لم أره منذ عامين. وفي ممر دار النشر التي يعمل فيها تمسك بي وطلب مني الدخول إلى مكتبه. وسألني بمكر، بصوت جهير، حتى أني اعتقدت أنه سيخبرني بنشوب حرب نووية:

- أتدري، ماذا كتبت؟

- قصيدة: قلت له، فواصل مغتاظًا:

- أتعرف ماذا سيحدث لو وقعت مثل هذه القصيدة بين أيدي أعدائنا في الغرب؟ سيستخدمونها في حملاتهم ضدنا!..

لم أشعر بأية رغبة في مناقشة هذا الرجل. وبدت لي حجته مضحكة.

لقد قال لينين قديمًا إن أعداءنا قد يستخدمون دائمًا بعض الفتات من نقدنا الذاتي ولكن لا يجب أن يمنعنا هذا من الكلام عن أخطائنا ومناقشة مشاكلنا. إن الإنسان القوي غني عن

إخفاء نقائصه. وبما أنني كنت مؤمنًا بالقوة الروحية لـبلادي، قررت بالضبط أن أتكلم بصراحة عما كان يبدو لي رديئًا. ومرة أخـرى، لم يزحزحنـي تـدخل ك.. قيـد أنملـة عـن اقتنـاعي الراسخ.

......

في عام 1955، نظـم للمـرة الأولى «يـوم الـشعر»، وقـد أصبح لاحقًا تقليدًا شعريًا حقيقيًّا وبمثابة عيد وطني فنـي. في هذا اليوم، دعي الشعراء لقراءة أعمالهم وتوقيعهـا في مختلـف مكتبات موسكو. كان عليَّ أن «أقدم نفسي» مع بعض الشعراء الشباب، في مكتبة بشارع موسكو، قريبًا من الجامعـة. لم أكـن أتوقع حدثًا خاصًّا، فـإذا بالمكتبـة تغـص بـأكثر مـن أربعمائـة شخص من الشباب، إلى درجة أنها بدت على وشك الانفجار جراء الزحـام والانـدفاع. وظـل مـا يقـارب الألـف، ممـن لم يـستطيعوا الـدخول يهتفـون تحـت النوافـذ: إلى الـشارع! إلى الشارع!

وقادتنـا سـواعد شـابة مـن الـشارع إلى سـلم الجامعـة. وهناك، فوق هذه «المنصة» المرتجلة، ألقينا قصائدنا واحدًا تلـو الآخر. وشعرنا جميعًا بأن جمهورنا ينتظر منا شيئًا خاصًّا، ومهمًّا بالنسبة له. قوبلت قصائد الحب بالتصفيق الحار، ولكن عيون الشباب ظلت تنتظر. كانوا يطلبون شيئًا مختلفًا أيضًا. وأخيرًا،

حان دوري. رأيت، في الصمت، آلاف العيون المتطلعة إليَّ ومن بينها عيني بيلا. ترددت لحظة، ثم بدأت ألقي بحماس تلك القصيدة بالذات التي لم يرد نشرها أحد، والتي كان فيها حسب رأي ك.. ما يدفئ صدر أعدائنا. ولم تفهم هكذا من قبل الحضور. وما كانوا ليصفقوا بتلك الحرارة لقصيدة تهاجم بلادهم. كانت هذه الأشعار بالنسبة إليهم وإليَّ، نداءً إلى النضال ضد كل مَن حال بيننا وبين الحياة وبناء مستقبلنا. كانت تلك التصفيقات، التي وجهها إليَّ لأول مرة ألف وخمسمائة من الشباب، أكثر من استفتاء عام. كانت دليلاً على أنني أسير في الاتجاه الصحيح وتشجيعًا على الاستمرار. لن أنسى أبدًا تلك الوجوه الشابة على سلم الجامعة.

ومع ذلك انصبت عليَّ الانتقادات. لامني بعض الأصدقاء، كل على حدة، على التخلي عن: «الفن الخالص» وفي الصحف اتهمت «بالعدمية» ولكنني لم أستسلم. واصلت كتابة قصائد محرضة على النضال ضد الدوغمائية والقذارات التي شوهت مثلنا العليا. وصرخت ملء صوتي بأن رايتنا لا تزال نقية ولو أنها كانت في وقت من الأوقات بين أيدٍ قذرة. وتلقيت شهادات عديدة على أن كلماتي، لم تنشر العدمية بل أسهمت في إنقاذ الشباب من اللامبالاة وساعدتهم على الاهتداء إلى هدفهم في الحياة.

كانوا جميعًا مثل عموم روسيا، متعطشين إلى الحقيقة. لم يجدوها في الصحف ولا في الإذاعة ولا في التلفزة التي كانت متخلفة عن مواكبة التحولات الجارية في حياة بلادنا. كانوا يحسون بالأحداث تتجاوزهم وينتظرون من الفنانين والأدب الكشف عنها. وكانت كثير من الأعمال الجديدة والقوية تنجز جماعيًّا بالفعل. إلا أن النثر جنس أدبي أقل مرونة من الشعر. الرواية لا تكتب في بضعة أيام ولا تقرأ على الجمهور. كان الشعر ملائمًا أكثر للظروف. فالقصائد غالبًا ما ترتجل بسرعة ويمكن قراءتها في أي مكان.

إن ماياكوفسكي هو الذي أدخل إلى روسيا عادة القراءات الشعرية العمومية، مرتجلة كانت أم غير مرتجلة. ومنذ وفاته تراجع هذا التقليد شيئًا فشيئًا فبعثناه، نحن الشعراء الشباب المنتمين لما بعد العهد الستاليني. وأظن أننا صادفنا صدى أقوى أيضًا من أسلافنا الشعراء، إذ لا أعتقد أنهم عرفوا في عهدهم مثل هذا التعطش الشديد والتلقائي إلى الشعر.

لقد دعيت إلى أمسيات شعرية في المصانع والكليات والمدارس والمعاهد العلمية والمختبرات. وقرأت أشعاري أمام جمهور متنوّع، يتراوح بين عشرين وألف شخص. ومع ذلك أعترف أنني لم أكن أتصور آنذاك أنه سوف توضع تحت

تصرف في بعد بضع سنوات أكبر قاعة للحفلات الموسيقية بموسكو وأن «الأمسية الشعرية» السنوية في عام 1963، سوف تغصّ بها رحاب قصر الرياضة «لوجنيكي»..

الربيع الجليدي

شهد مطلع عام 1956 حدثًا جديدًا وعظيمًا في روسيا: إذ كشف الحزب الشيوعي السوفييتي، في مؤتمره العشرين، النقاب عن جرائم ستالين. ولم يهتم بأن يستخدمها ضدنا أعداؤنا في الخارج. فتأكد بالتالي اقتناعي الراسخ بأن لشعبنا الحق في معرفة الحقيقة وأن إخفاءها عنه، بأية ذريعة، إنما يعني إهانته وعدم الثقة به.

لقد كنت أشعر في وقت من الأوقات بمسؤوليات ستالين. غير أني لم أستطع قبل تقرير خروتشوف تقدير حجم إجرامه. وأظن أن معظم الروس كان لهم هذا الشعور نفسه.

كان الناس يغادرون الاجتماعات التي قرئت فيها هذه الوثيقة التاريخية منهارين ومنكسين رؤوسهم بحزن، وعلى كثير من المنتمين منهم إلى الجيل القديم طرح سؤال رهيب:

ربما هدرنا حياتنا هباء؟ وكان عذابهم النفسي محسوسًا في كل مكان.

الكاتب الموهوب، فادييف، أطلق على رأسه رصاصة من المسدس الذي احتفظ به منذ أن كان نصيرًا في الزمان البطولي للحرب الأهلية، فانضاف هذا الانتحار إلى قائمة جرائم ستالين.

وبدأ الشباب يشككون ليس في قيمة ستالين فحسب بل في قيمة ماضينا كله. مما زاد في عذابات آبائنا. ولكن، هناك دائمًا أصناف مختلفة من الآباء والبنين. كان الجيل القديم منقسمًا إلى طائفتين، فهناك من جهة أولى الشيوعيون الحقيقيون، الذين لم يتخاذلوا ولم تفتر عزائمهم، بل ثابروا على العمل بمزيد من الحيوية لتصحيح أخطاء العهد السابق وإلغاء كل ممارساته المشؤومة. ولكن، من جهة ثانية، ظهر أولئك الذين نسميهم اليوم بالدوجمائيين. لقد كانوا يدعون الشيوعية ويصادقون على قرارات المؤتمر العشرين، وفي الوقت ذاته يرتعدون رعبًا من تصور فقدان مقاعدهم الوثيرة. لم تكن لهم الشجاعة لمواجهة الحقيقة وفهم الطبيعة المضنية للشعار الجديد «يجب إعادة الضوابط اللينينية إلى حياة الحزب» فحاولوا تمويه تقييم المرحلة الستالينية، مع أن رأي المؤتمر العشرين كان واضحًا: لا نعيد بناء إلا ما تم تخريبه من قبل.

كان الدوجمائيون أقوياء فتمسكوا بمواقعهم في كل مكان، وعطلوا بذلك تجديد بناء فلاحتنا وإعادة تنظيم

صناعتنا. وناضلوا بضراوة للحيلولة دون إلغاء «الحزم الزرقاء» والسيارات الخصوصية وغيرها من الامتيازات. كان أسلوبهم المفضل التشهير في كل مكان بالشبيبة السوفييتية بدعوى أنها غارقة في العدمية ولا تراعي التقاليد الثورية لبلادنا. ولتبرير اتهاماتهم كانوا يذكرون على سبيل المثال أن الشبيبة تفضل السراويل الضيقة وتحب الجاز وتقرأ همنغواي وتعجب ببيكاسو. وعلى أساس هذه العناصر بنوا نظرية سوسيولوجية قائمة عن فساد شبيبتنا بالتأثير البرجوازي.

كيف كانت هذه الشبيبة في الواقع؟

قسم منها سقط بالفعل في الكلبية، وتهافت شبان آخرون، لشعورهم بالفراغ الروحي المحيط بهم، على الكنزات الصوفية الزاهية الألوان وأحذية الموضة واسطوانات الجاز، معتقدين أنهم يتلقون أصول الثقافة الغربية برقصهم الروك أندرول. وفي الواقع استمر معظم هؤلاء على جهلهم بوجود بيكاسو وهمنغواي، ومع ذلك أغدقت عليهم الصحافة الغربية دعاية لا تناسب عددهم وأهميتهم، إذ كانوا أقلية.

إن أفضل الشباب السوفييتي لم يسقط في الكلبية رغم معاناته في فترات صعبة من التردد والشك. فالتجربة المضطربة التي عاشها في المراهقة قد صهرته إلى الأبد واستمد منها القوة للنضال ضد أخطاء آبائه ولمواصلة عملهم أيضًا. أعتقد أنه من المبالغة الكلام عن صراع بين الأجيال في الاتحاد

السوفييتي. لديَّ أصدقاء من بين الشيوعيين في سن والدي أنسجم معهم أكثر مما أنسجم مع بعض الشباب من جيلي، الذين تفوح منهم رائحة النفتالين (مادة كيماوية تستعمل في صناعة الأصباغ والعطور). إن الشباب الروحي لا يعرف الحدود بين الأجيال. ليس صحيحًا أن الشباب وحدهم اكتشفوا فضيلة الثياب المفصلة جيدًا وجمال الجاز وحتى متعة رقصة الروك أندرول. ومن العبث من جهة أخرى الادعاء بوجود أدنى علاقة بين هذه الأذواق وبعض القناعات السياسية. أعرف أشخاصًا من خيرة الجيل الجديد، يقرؤون بالذات همنغواي ورومارك وسالينجر وكيرواك وكينغسلي أميز وغيرهم من كتاب الغرب ويشاهدون أفلامًا أجنبية ومسرحيات تنيسي ويليامز وأرثر ميللر ويقفون في الطوابير ساعات أمام معارض بيكاسو وفيرناند ليجير وهم قادرون تماما على التمييز بطريقة نقدية بين ما هو جيد ورديء في التراث الثقافي الغربي. وكل ذلك لا يمنعهم من النضال في سبيل ثقافتهم الاشتراكية. ببساطة، إن المعارف الجديدة توسع أفقهم العقلي وتجعل أذواقهم أكثر تنوعًا وتشددًا، ولكن الدوجمائيين العاجزين عن إدراك هذه الظاهرة لم يروا فيها إلا «العدمية» المزعومة.

بذلوا إذن كل ما في وسعهم لوقف هذا التطور الوحيد الاتجاه، بل حاولوا استغلال التوتر الدولي للمطالبة بردع الشباب، ولكن محاولاتهم كانت غير مجدية.

لست متفقًا على تعبير «ذوبان الجليد» الذي أضفاه إيليا إهرينبورغ على كل هذه السيرورة الثقافية. إن ذوبان الجليد يمكن أن يحدث في وسط الشتاء، وأن يعقبه جليد جديد وشامل، في حين أن وضعنا لا ينطبق عليه هذا الوصف.

هذه المرحلة في نظري لا يمكن تعريفها إلا كربيع. والربيع هو الآخر قد يكون صعبًا. إذ نقاسي فيه من صقيع الصباح، والرياح الباردة قد تهب فيه أحيانًا فهو يقوم بخطوة إلى اليسار وأخرى إلى اليمين وحتى بخطوة إلى الخلف.

إن الشتاء يتشبث بالربيع إذا صح القول. ويحاول أن يؤخره أو يعوق نموه وتطوره، لكننا نحس بأن كل هذه الحملات الشتوية محكوم عليها بالعجز. إنها المعارك المؤخرة التي لم تمنع الربيع أبدًا عن التطور والنماء ولا الطقس الجميل من التفتح والإشراق.

لذلك آمنت دائـمًا بهذا الربيع المناهض للستالينية ولم تزعجني كثيرًا تلك الانتقادات والهجومات التي انصبت عليَّ. كتب عني آنذاك صحافي في «باري ماتش» قائلاً إنني كنت «الشاعر الملعون من الساحة الحمراء». لم يفقه شيئًا من الوضع. ليس الساحة الحمراء بل الدوغمائيون هم الذين صبوا لعناتهم عليَّ. ومع ذلك كانوا عاجزين عن منعي من حق الكتابة وإلقاء أشعاري ونشرها أكثر فأكثر. وهذه بعض الأمثلة: في عام 1956 نشرت أخيرًا قصيدتي «محطة زيما» وعلى

الفور وجه إليَّ بلشفي قديم أقسى الاتهامات في صحيفة الشبيبة «كمسمولسكايا برافدا». اكتشف في قصيدتي علامات على الزندقة والكلبية وعيوبًا أخرى فظيعة. إلا أن الجريدة قصفت منذ اليوم التالي بآلاف الرسائل المدافعة عني، فأعادت فتح أعمدتها لقصائدي. وصدرت بعد ذلك مجموعتي الشعرية «طريق المتحمسين». ولم يغازلها النقاد، إلا أن نسخها نفدت في بضع ساعات وبيع الديوان سرًّا. فكان ذلك ردًّا على هؤلاء المغتابين. وأخيرًا في عام 1957 تصدرت مجلة «الحرس الفتي» مجموعة من قصائدي المناهضة لعبادة الفرد. ويبدو أن صراعًا دار لدى السلطات العليا حول هذا العدد. وجرت محاولة لمصادرته ولكن بعد فوات الأوان. كان ينبغي سحبه من البيوت؛ لأن الطبعة نفدت في بضعة أيام. وعندئذٍ تصدى لي ولعدميتي النقاد بمزيد من القسوة والضراوة.

......

وفي نفس هذا العام 1957، تركزت المعركة التي قسمت الأوساط الثقافية حول حالة دودينتسيف. في بادئ الأمر استقبلت روايته «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» كتحفة فنية رائعة، وشبه كاتبها تقريبًا بتولستوي. لم تعجبني هذه المبالغة لأنني مع اعترافي بقيمة رواية دودينتسيف وجدت فيها بعض العيوب الفنية ثم انقلب رأي نقادنا رأسًا على عقب ولم يعد دودينتسيف تولستوي الجديد بل صار بين عشية وضحاها

عميلاً للإمبريالية. ودفعتني هذه الاتهامات العبثية إلى مساندة دودينتسيف فدافعت عنه جهارًا كرفيق ومواطن سوفييتي وفنان.

ولم تمض بضعة أيام حتى طردت من المعهد الأدبي، السبب عدم المواظبة على الدروس. في الحقيقة لم أكن في عام 1957 طالبًا أقل انضباطًا مما كنت خلال الأعوام الأربعة السابقة، ولكن هذا لم يكن يزعج أحدًا. وعز عليَّ كثيرًا أيضًا أن أجد تعليلاً لطردي من منظمة الشبيبة «الكمسمول» لأن أحدًا لم يناقشني أو يذكر لي الأسباب. ويبدو أنني ببساطة كنت «مجردًا من الحياة». كانت معنوياتي منهارة، حين التقيت في تلك الفترة بالشاعر ياروسلاف سميلياكوف المعتقل ثلاث مرات في العهد الستاليني، وكان عائدًا للتو من أحد المعتقلات. لقد سقطت على كاهل هذا الرجل كل مصائب الدنيا. كان كل شيء معدًّا سلفًا لتحطيم موهبته الشعرية. ومع ذلك كتب حتى في المعتقل وفي ظروف فظيعة، قصيدة طويلة رومانتيكية طافحة إيمانًا بالمثل الأعلى للثورة وبالثقة في انتصار العقل. قام هذا الرجل بمأثرة بطولية حقيقية. ولو استحقت قصيدة يومًا أكبر جائزة في بلادنا وسام لينين فهي بالتأكيد قصيدة ياروسلاف سميلياكوف. لقد لعبت لقاءاتي مع هذا الرجل دورًا مهمًّا جدًّا في حياتي قبل كل شيء، عندما رأيت أن ماضيه المأساوي لم يغير شيئًا من قناعاته وإيمانه بالمستقبل،

أدركت أنه ليس من حقي أن أستسلم للإحباط أو أن أشتكي من مصيري. طبعًا، انصبَّت عليَّ شتائم شتى. وصفت «بالشاعر الخليع» و«القائد الإيديولوجي للمثقفين الصعاليك» و«البرجوازي المنحل» و«ذواقة الفجور» و«الثوري المزيف» وهلم جرًّا..

إلا أن ظهري السيبيري استطاع الصمود أمام هذا الهجوم. ثم إنني لم أكن وحدي، كان يؤازرني أصدقاء من أمثال سميلياكوف وفينوكوروف وشيباتشوف ولوكونين وميجيروف وأنطوكولسكي. وكنت صديقًا للفنانين الرائعين فاسيليف ونيزفيستني. وفي كل يوم كنت أتلقى رسائل وهدايا مؤثرة خاصة وأنها كانت مجهولة في الغالب. لم تكن لشتائم الدوغمائيين العواقب نفسها على الربيع المناهض للستالينية كما في العهد السابق. ولم يكن شعارهم كافيًا لإحباطي والحيلولة دون نشر قصائد جديدة أو إلقائها أمام الجمهور.

وأعيدت إليَّ عضويتي في الكمسمول بقوة القانون بل انتخبت في كتابة المنظمة بالمعهد الأدبي وتحملت هذه المسؤولية أربع سنوات متعاقبة. كان واضحًا بالنسبة لي أن الربيع يتطور تطورًا طبيعيًّا وأن كل يوم يقربنا من الصيف.

......

في هذه السنوات الأخيرة كان لدينا الكثير من المواهب الجديدة، عازف الكمان القديم، يوري كازاكوف، الذي بدأ في

الوقت نفسه مثلي في جريدة «الرياضة السوفييتية» بسلسلة من المقالات المتواضعة جدًّا عن حياة الرياضيين الأمريكيين، وتحول إلى كاتب رقيق جدًّا من طراز تشيخوف. وكان الطبيب الشاب أكسيونوف يغتنم أية لحظة من أوقات فراغه أثناء الحراسة بالمستشفى لكتابة أقاصيصه الأولى ذات الأسلوب الجديد. وكانت بيلا أخمادولينا وهي بعد في المعهد الأدبي، تداعب الريشة بأناملها الناعمة وترسم على الورق حروفًا كبيرة طفولية. كانت لأشعارها قوة ذكورية فضلاً عن تلك الطاقة السحرية التي لا تضفيها عليها سوى الأنثى وحدها. وإلى جانبها كان روبرت روجديستفينسكي، هذا اللاعب القديم للكرة الطائرة ذو اليدين القويتين، يكتب قصائد عنيفة كتبت لها الشهرة. أما بولات أكودجافا فقد كان يقضي سحابة يومه منكبًا على مخطوطات مضجرة في إحدى دور النشر، ولكنه في المساء قرب كأس فودكا يعزف على القيثارة ويغني لاثنين أو ثلاثة من أصدقائه قصائد غنائية فريدة، ولم يخطر بباله أنها بعد سنوات عديدة ستسجل على آلاف الأشرطة المغناطيسية وستجعل منه الفنان المفضل في عموم روسيا الفتية. وكان أندري فوزنيسينسكي، هذا الفتى النحيل ذو العينين الواسعتين الثاقبتين الذي لا يزال طالب هندسة، يخص بوريس باسترناك بالقراءة الأولى لقصائده غير المعروفة لدى الجمهور الواسع.

اكتب الحقيقة فقط يا بني

كان كثير من الشعراء الشباب يزورون باسترناك بانتظام.

وكثيرًا ما نصحوني بالذهاب معهم، إلا أنني كنت دائـمًا أعتقد أن أجمل اللقاءات هي التي تأتي بالمصادفة، وفضلاً عن ذلك لم أكن أريد إزعاج باسترناك.

وأخيرًا سنحت الفرصة عام 1957، حيث طلب مني اتحاد الكتاب أن أرافق البروفيسور الإيطالي ريبولينو إلى «داتشا» باسترناك، فذهبنا إليه على غير موعد وانتظار.

ولما وصلنا تراءى لنا في طرف الحديقة رجل رشيق، أبيض الشعر، يرتدي سترة متواضعة بيضاء، ويبدو كأنه مختبئ خلف شجرة.

رَحَّبَ بِنَا متضرجًا خَجَلاً وتفحصني بنظرته القاتمة المندهشة ثمَّ قال لي دُوْنَ أن يتركَ يدي:

- أنت يفتوشينكو.. هكذا تمامًا كنت أتصورك.. نحيلاً.. طويلاً، وذا مظهر خجول مع أنك لست كذلك.. أعرفك من زمن بعيد.. أعرف أنك غير مواظب على دروس المعهد الأدبي.. وأشياء أخرى أيضًا..لكن مَن هذا الذي يرافقك؟ شاعر جورجي دون شك؟ أحب الجورجيين كثيرًا..

وعندما قدمت له البروفيسور الإيطالي لم يبد عليه أي اضطراب.

- حسن جدًّا، أحب كثيرًا الإيطاليين أيضًا.. جئتم في الوقت المناسب.. طعام الغذاء سيقدم بعد لحظة. تفضلوا إلى البيت، لاشك أنكم جائعون.

كل ذلك قيل بشكل طبيعي وبسيط، بحيث شعرنا بالارتياح فورًا. أكلنا الدجاج وشربنا الكونياك، الذي قدّم لنا كما لو كنا أصدقاء حميمين نزوره باستمرار.

كان باسترناك يبدو أصغر من سنه، يمكن تقدير عمره على الحد الأقصى في السابعة أو الثامنة والأربعين. كان يفوح بنضارة مدهشة، كباقة ليلك قطفت حديثًا وعلى أوراقها لا

تزال تتلألأ أنداء الصباح. كانت حيوية وجهه مدهشة، أما ابتسامته التي تكشف عن أسنانه الناصعة البياض فتبدو لامبالية على نحو غريب.

كان يبدو كأنه يعيش خارج الزمن. ولكن هيئته لا تخلو من كلفة . كتب باسترناك يومًا إلى ميرهولد: «إذا كانت الشخصية التي تمثل دورها معبرة عن حقيقتك، فمن الأفضل أن تستمر عليها». يبدو لي أن هذه الكلمات تنطبق عليه جيدًا هو بالذات.

يحتاج المرء إلى كثير من الشجاعة ليمثل هذا الدور الذي اختاره! ويحتاج إلى شخصية قوية ليحافظ على هذه الابتسامة اللامبالية في عصرنا الخالي من الابتسام. وكانت هذه القدرة على تشكيل شخصيته بتلك الصورة دفاعه ضد العصر.

لم يكن بوريس باسترناك يؤثر في الناس ككائن بشري، بل كعطر وضياء وحفيف.

حكى لنا ضاحكًا:

- أتدرون ماذا حدث لي اليوم؟ زارني هذا الصباح بناء أعرفه. أخرج من جيبه زجاجة فودكا وقطعة سجق وقال لي: «في العام الماضي أصلحت لك السقف ولكني لم أكن أعرف مَن أنت. الآن، أخبرني بعض الطيبين أنك إنسان تدافع عن

الحقيقة، فأحببت أن أشرب معك» شربنا معًا ثم قال لي: «قدنا» لم أفهم في البداية فسألته: «إلى أين تريدني أن أقودك؟» فقال ببساطة متناهية: «كيف إلى أين؟ إلى الحقيقة طبعًا». يا لها من فكرة طريفة! لم أفكر يومًا أن أقود أيًا كان إلى أي مكان. إن الشاعر مثل الشجرة تحف أوراقها في الريح، ولكنها لا تستطيع أن تقود أحدًا..

كان يحكي كل ذلك متطلعًا إليّ بنظرته الماكرة، ثم خاطبني بصوت مشحون بالمضمرات:

– وأنت، يفتوشينكو؟ هل تقاسمني هذا الرأي؟ أترى أيضًا أن الشاعر ليس إلا شجرة لم تقد أحدًا يومًا إلى أي مكان؟

قديمًا كتب سيلفينسكي أن باسترناك يشبه العربي وحصانه معًا، وكان مصيبًا تمامًا.

بعد الغذاء قرأ لنا باسترناك قصائده وهو يهز رأسه ويمط الكلمات، كانت أشعارًا مستنفرة كتبها حديثًا، حينما وصل إلى هذا المقطع:

عند رؤية تنورة

كان ينطلق

وتصبح في متناوله

أعظم الفتوحات! ..

ألقى نظرة خجلى على زوجته التي كانت تداعب غطاء المائدة بعصبية، ثم تنهد بفرح كأنه يتحسر على شبابه الفياض بالحيوية والقريب إلى قلبه حتى الآن.

وطلب مني بعدئذٍ قراءة أشعاري. لم تعجبه فيما يبدو قصيدتي «عرس» المكتوبة عن حفلات الزفاف في سيبيريا خلال الحرب عام 1941، وأثارت حماسته القصيدة الثانية «استهلال». كان ينتفض كطفل صغير، أمام الأبيات التي تعجبه. فيقفز من فوق مقعده، يضرب كفًّا بكف، ويضحك بمرح. وعندما سكت أقبل عليَّ وضمني بين ذراعيه. لقد حيرتني كثيرًا ردود فعله. إذ كانت «العرس» قصيدة أقرب إلى قلبي وأعمق في نظري من قصيدة «استهلال» التي كنت أعتبرها عملاً سطحيًّا جدًّا. ولم أفهم إلا في مناسبة أخرى أن باسترناك رجل عاطفي وسريع التأثر إلى أبعد حد، تختلف ردود فعله حسب مزاجه في تلك اللحظة، وحدث أن قرأت عليه قصيدتي «الوحدة» فأجهش متنهدًا: «إنك تتكلم عني، عني أنا، أنا..».

أتمنى أن أتحدث يومًا عن تفاصيل لقاءاتي الأربعة مع باسترناك. عندما ودعني آخر مرة قبلني في فمي حسب العادة الروسية.

إنها لجريمة حقيقية ارتكبها أولئك الذين حاولوا في الغرب استغلال اسمه في دعايتهم للحرب الباردة، كما أنني لن أغفر أبدًا سلوك بعض كتابنا الذين أخذوا بهذه الذريعة لمحاولة حذف اسم باسترناك من تاريخ أدبنا. لقد كان باسترناك يحب بلاده ولم يقصد الإساءة إليها أبدًا، طبعًا، كانت هناك أشياء لم يستطع أن يفهمها ولكن، ليس عن سوء نية، ببساطة لم يستطع فهمها.

كان باسترناك ينظر إلى كثير من أحداث حياتنا السوفييتية كأنه على الضفة الأخرى من نهر الزمن. وكانت غريزته العجيبة تتيح له أن يميز، من خلال ضباب المسافة، محيط بعض الأشياء لا تفاصيلها. وحتى هذا المحيط المنظور إليه من ضفة النهر الأخرى يغدو أحيانًا ضبابيًا لديه. لقد عاش طوال سنوات في بيته الريفي دون أن يزور موسكو تقريبًا، مما منحه قابلية لا تقدر بثمن للتواصل مع الطبيعة ومحاورة ذاته، وفي الوقت نفسه أبعدته هذه العزلة ليس عن اضطرابات المدينة فحسب ولكن عن النضال أيضًا، وأيضًا عن التحولات الجارية في العالم. وكان يعترف بذلك أحيانًا.

ذات مرة، قال باسترناك عن نفسه إنه بمثابة علامة للحدود بين حقبتين تاريخيتين، ولا شيء يمكن أن يعرفه أفضل من ذلك، وهذه الوضعية بالذات هي مصدر قوة ومأساة هذا الشاعر العبقري.

في عام 1957 تعرفت إلى رجلين أصبحا فيما بعد صديقيَّ الحميمين. ولعبا دورًا مهمًّا في تكويني. هذان الرجلان هما الرسام يوري فاسيلييف والنحات إرنست نيزفيستني، كانا معًا أكبر سنًّا مني وقد مرا بمدرسة الجبهة القاسية وجرحا عدة مرات، بعد الحرب رفضا اتباع وصفات الفن الأكاديمي بلا روية وأخذا يبحثان عن أشكال جديدة، معتبرين عن صواب أنهما دفعا من دمهما ثمن الحق في رسم ونحت ما يبدو لهما جديرًا بالرسم والنحت. ولكن في ذلك العهد لم يكن الآخرون مع هذا الرأي ولذلك عاش فاسيلييف ونيزفيستني حياة قاسية. قبل معرفتي بهما كنت أميًّا تمامًا في مجال الفنون التشكيلية. كان الانطباعيون يمثلون في نظري أحدث التيارات الفنية. ولم أشاهد قط أعمالاً لمن جاءوا بعدهم. وكان، بالتأكيد، معرض لبيكاسو في موسكو، لكن الحصول على تذكرة الدخول كان أصعب منالاً من ربح سيارة في اليانصيب. كنت أعرف، عبر الصحافة، تيارات حديثة في الفن، لكنني كنت على يقين أن مؤسسيها ليسوا سوى أناس

فاسدين، يغتنون عن طريق المضاربة في الفن وهم جميعًا أعداء ألداء للشيوعية. وإذا بي أتعرف إلى فنانين من أنصار الحداثة، يميلان إلى الفن التجريدي وهما معًا شيوعيان جيدان وبطلان قديمًا. في الحرب ويتحليان بالاستقامة والنزاهة. وعندئذٍ أدركت الطلاق الحاصل بين المفاهيم الراسخة في أذهاننا والواقع الفني. وبفضل صداقة فاسيلييف ونيزفيستني أتيح لي أن أعرف فنانين آخرين من الشباب الروسي كما عرفت خلال رحلتي إلى الخارج فنانين أكثر اختلافًا مثل بيكاسو وماكس إرنست أو ميرو وهنري مور. أعلم أن هناك كثيرًا من المشعوذين والمضاربين في عالم الفن الحديث، إلا أنني تعلمت أيضًا كيف أميز بينهم وبين الفنانين الحقيقيين الذين يبحثون عن طرق جديدة بنزاهة وبعبقرية في الغالب. وأعرف أيضًا أنه ينبغي للمرء أن يكون دوجمائيًّا تمامًا ليتكلم عن هؤلاء الفنانين «كأتباع للبرجوازية». أصبحت إذن شغوفًا بفن الرسم، فحولت مكافآتي الأدبية إلى لوحات، وجدران شقتي الآن مغطاة كلها بأعمال فنية من مختلف المدارس الواقعية والانطباعية والسريالية والتجريدية، وهي تتعايش في حسن جوار ولا تدفعني أبدًا نحو طريق الإيديولوجية البرجوازية. هذه اللوحات رفيقاتي وكثيرًا ما أجري معها حوارًا صامتًا حين أكون حزينًا. عندما أتأملها، مفكرًا في كل المدارس، غالبًا

ما أستخلص أن الواقعية هي الشكل الأرقى في الفن. إلا أن الواقعية بالنسبة إليَّ يمكن أن تكون لها مئات إن لم نقل آلاف الأشكال المختلفة ويمكن أن تكون أيضًا واقعية تصويرية أو غير تصويرية.

وكثيرًا ما كان يهمس صوت في داخلي: «هناك مَن يشتمك وليس هذا بالأمر الخطير جدًّا ولكن هناك مَن يحبك وهذا واجب أنيط بك وشيك موقع على بياض لا يحق لك أن تبذره». وهكذا صرت كثير الانتباه إلى المناقشات التي تعقب أمسياتي الشعرية وإلى الحوار مع الجمهور. كان جمهوري يشعر بأني أمر بمرحلة حرجة، إذ كانت قصائدي تعكس رغمًا عني مشاكلي الشخصية. وكان كثير من قرائي يتعاطفون مع هذه الحالة النفسية، ولكنهم كانوا ينبهونني أيضًا إلى عدم نسيان حياة الآخرين وقضايا الساعة على العموم. ذات مرة، في معهد الطاقة بموسكو، شارك أكثر من ألفي شخص في مثل هذا النقاش. قال لي طالب:

- نحن بحاجة إلى غنائيتك الحميمية ولا ننتقدك على قصائدك الذاتية جدًّا. لكن لا تنسَ أنك لست ملكًا لنفسك فقط.. لقد منحناك ثقتنا، ليس لشعرك الغنائي فحسب. فلا تخيب الأمل.

ومرة أخرى، في مصنع، أقبلت عليَّ عاملة منهكة القوى تنصحني:

- اكتب الحقيقة فقط، يا بني، فقط الحقيقة.. ابحث عنها فيك وانقلها إلى الشعب وابحث عنها في الشعب وضعها فيك..

كانت هذه الكلمات من الحكم الشعبية الروسية الأصيلة تؤكد لي أن قرائي يشاركونني من حيث لا يدرون في إنتاج أعمالي. ثم إني اعتدت من جهة أخرى على قراءة أشعاري أمام أناس من مختلف المهن، أصدقاء ومجهولين، ولم أعرضها للنشر إلا بعد هذه «المراقبة». وكان كثير من الشعراء الشباب يفعلون مثلي، وبالتالي كانت انتقادات قرَّائنا التي تنم عن ذوق شعري متشدد جدًّا تجنبنا كثيرًا من العقبات. كان عملنا يتطور ويتقاطع متحررًا من النقد الرسمي، ولكنه يعاني من النقد العنيف لأولئك الذين يقاسموننا الهموم نفسها. إلا أنني لم أرد أن أظل سجينا في جو موسكو، وقد كنت دائمًا أحب السفر وأعرف، من خلال ذكريات طفولتي السيبيرية، أن روسيا لا تنحصر في عاصمتها، فاغتنمت أية فرصة سانحة لأهرب أبعد ما يمكن، لزيارة التايغا ومسقط رأسي. وأستطيع القول إنني طفت بكل ربوع الاتحاد السوفييتي، رحلت إلى الشرق الأقصى، حتى كامتشاتكا، وإلى جورجيا. واشتغلت في الأراضي البكر في آسيا وأقمت على ضفاف الفولغا، بينما كان المغتابون في موسكو يشيعون أني «انعزلت» عن شعبي

ويجعلون مني «الأب الروحي للصعاليك» بل أطمح إلى أن أمثل دور «معشوق الفتيات الغريرات».

ذات مرة، بعد رحلة قمت بها وحيدًا عبر السهل السيبيري، دخلت إلى مكتب سكرتير الشبيبة الشيوعية لمدينة كمسمولسك - آمور. كان جسدي ينزف دمًا من لسعات البعوض وكانت ثيابي في حالة يرثى لها وليس معي أي كوبيك. ولم يخفِ السكرتير دهشته عندما ذكرت له اسمي، وعلى مكتبه بالذات إحدى تلك الصحف التي تصفني بغندور الشبيبة العدمية. قال لي:

- لا أدري إن كنت معشوق الفتيات الغريرات ولكنني أستطيع أن أشهد أن البعوض يعشقك!..

وفي أحد الاجتماعات التي شاركت فيها بعد عودتي إلى موسكو أخذ ناقد من أكثر نقادنا فخفخة وأبهة يلوم الشعراء والكتاب من الجيل الجديد على أسفارهم الكثيرة:

- لماذا أنتم بحاجة إلى التسكع في أرجاء سيبيريا أو كامتشاتكا؟ إنه ضياع للوقت وتبذير لأموال الدولة، إذا أردتم لقاء العمال اركبوا الترامفاي وبخمسة عشر كوبيكا ينقلكم إلى مصنع في الضاحية الموسكوفية!

تطلع أحد الكتاب الشباب بحزن إلى هذا الناقد الواعظ ثم قال له:

- أيها الرفيق العزيز، إذا كنت تركب الترامفاي كثيرًا، فستلاحظ لا محالة أن ثمن التذكرة منذ عشر سنوات هو ثلاثون كوبيكا وليس خمسة عشر..

كتبت، في إحدى قصائدي، أن وجود الحدود يضطهدني ومن غير المقبول ألا أعرف نيويورك أو بوينس إيرس، وأريد أن أتجول في لندن حتى وإن كنت لا أعرف الإنجليزية وأحلم بالنزهة عبر باريس على مصطبة حافلة. فشن المغتابون هجومًا على هذه القصيدة وعلى رغبتي في زيارة الخارج، وصاح أحدهم: «استكمل أولاً تكوينك الماركسي في بلدك» لكن ما هو التكوين الماركسي؟ إنه في نظري لا يكتسب في المدارس بل هو على العكس عملية مستمرة قائمة على رؤية ومعرفة أشياء جديدة بلا انقطاع. إن الماركسي الحقيقي هو الذي يتعلم باستمرار.

كان أول بلد أجنبي زرته هو بلغاريا.

على طريق قروي استوقف حافلتنا شريط من المناديل الموشاة المعقودة. كان في هذه القرية حفل زفاف وقد دعانا البلغاريون بتلقائية لمشاركتهم هذا الفرح. شربنا النبيذ مع العروسين وتناولنا طعام وليمة الزفاف وكانت معي زجاجة فودكا أردت أن نشربها معهم شكرًا لهم على كرم الضيافة. فإذا بأحد أفراد جماعتنا السياحية يهمس في أذني بنبرة رعب:

- أتدري ماذا فعلت؟ إنك تشهر بنا جميعًا!

لم أفهم ساعتها ماذا كان يقصد إلا أنه شرح لي في غرفتي بالفندق في ذلك المساء. لقد أراد أن يثبت لي بكلام مثير جدير بالقضايا الكبرى أن الفلاحين البلغاريين سيعتقدون من الآن فصاعدًا أن جميع السوفييت يسافرون بحقائب محشوة بقناني الفودكا وأن تصرفي قد شوه في عيونهم صورة الإنسان السوفييتي..

لاشك أن هذا الواعظ الأخلاقي كان «ماركسيًّا تام التكوين» ومن الممكن إطلاقه في الخارج دونما خشية من ارتكابه أية زلة..

إن من أفظع مخلفات التركة الستالينية هذا التشوه النفسي لبعض مواطنينا. على العهد الستاليني لم يكن يسافر إلى الخارج إلا الديبلوماسيون والشخصيات الرسمية. وظل العالم الخارجي في نظر الآخرين يخيم عليه ضباب غامض. كان بالنسبة للبعض جنة ساحرة وللآخرين مرعبًا وعدوانيًّا، لذلك ظل رفيقي في الرحلة حذرًا دومًا حتى في بلد شقيق كبلغاريا. لكن ضباب علاقاتنا مع الخارج انقشع بشكل غير محسوس، إذ توافد على روسيا عشرات الآلاف من السياح من مختلف البلدان وشارك عشرات الآلاف من مواطنينا في رحلات سياحية إلى الخارج. ولعب مهرجان الشباب بموسكو دورًا

كبيرًا في تبديد الأحكام الجاهزة. كانت شوارع العاصمة تموج بشباب من مختلف الجنسيات والألوان، وكانت صداقاتهم إعلانًا عن عالم المستقبل. وكثيرًا ما فكرت آنئذٍ في كلمات بول إيلويار: «من أفق الإنسان إلى أفق الإنسانية جمعاء». وأدركت أيضًا أن معركتنا داخل بلادنا لا تنفصل عن المعركة التي يخوضها الناس في الخارج من أجل عالم أفضل. لذلك لم أفكر خلال أسفاري الأخيرة في تأمل المناظر الأجنبية والذخائر التاريخية فحسب بل سعيت في كل مكان إلى الناس الذين يناضلون ضد الكذب والاستبداد. وقد التقيت بمثل هؤلاء الناس في كل مكان وعلى كل القارات.

في هيلسينكي، الصيف الماضي، خلال مهرجان جديد للشباب، حاول بعض الشباب من «الخوليغان» تعكير جو عيدنا العالمي، فكتبت قصيدة بعنوان «فاشية المخاطيين» ترجمت إلى عدة لغات وتداولتها مختلف الوفود. قال لي أحد المسؤولين عن وفدنا في المهرجان:

– أعتذر لك عن إساءة الظن بك. لم أكن أتصور أنك قادر على كتابة مثل هذه القصيدة. يجب أن تكتب أكثر عن المواضيع الخاصة بالخارج. إن لك قدرة كبيرة على نقد الإيديولوجية البرجوازية. يا للسذاجة! كيف أشرح له أنني لم أسمح لنفسي بانتقاد ما لا يعجبني خارج حدودنا إلا لأني

كنت أتكلم صراحة عما لا يعجبني داخل بلادي، وما كنت لأحترم نفسي لو اكتفيت بنقد الآخرين فقط. لكن هذا الشخص اعترف لي بأنه لم يفهم كيف استطعت أن أكتب «بابي يار» و«فاشية المخاطيين» في الوقت نفسه. بالنسبة إلي القصيدتان معًا كتبتا عن المعركة نفسها من أجل المستقبل.

منذ زمن بعيد، أرقتني مشكلة معاداة السامية وأردت أن أكرس لها قصيدة. لكن هذه الرغبة لم تتحقق إلا إثر سفري إلى مدينة كييف وزيارة ذلك المكان الرهيب الذي أعدم فيه النازيون آلاف اليهود الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال، وفي اليوم نفسها الذي عدت فيه إلى موسكو كتبت «بابي يار». مساء ذلك اليوم كان عليَّ أن أحاضر في المعهد البوليتيكنيكي حول رحلتي إلى كوبا وأن ألقي بعض القصائد. وهناك قرأت لأول مرة «بابي يار». جرت العادة أن ألقي أشعاري غيبًا، لكنني في هذه المرة كنت مضطربًا ومتوتر الأعصاب فاحتفظت بالأوراق أمام عيني. وحين سكت ران على القاعة صمت مطبق. ثم تابعت النظر في أوراقي حتى لا أرفع عيني فأشعر بالارتباك. وعندما رفعت بصري أخيرًا رأيت القاعة كلها واقفة وبعد لحظة صمت دوت عاصفة من التصفيق استمرت لعدة دقائق. وصعد إلى المنصة أشخاص يعانقونني ويقبلونني والدموع تنهمر من عيني. وبعد الأمسية جاء إليَّ رجل أبيض الشعر يتوكأ على عصاه وقال لي:

- إنني عضو في الحزب الشيوعي منذ 1905، إذا شئت أقترحك لعضوية الحزب.

قبل بضعة أيام كانت صحيفة موسكوفية كبيرة قد نشرت مقالة نقدية عنوانها «أنا أعارض» ردًّا على قصيدتي «اعتبروني شيوعيًّا». ذكر فيها كاتبها أنه إذا رشحت نفسي لعضوية الحزب الشيوعي السوفييتي سيصوت دائمًا ضدي. وإذا بي أمام شيوعي عريق يقول لي: «إن ما قلته عن كوبا وما كتبته في «بابي يار» شيء واحد، لقد قضيت خمس عشرة سنة في المعتقلات الستالينية وأنا سعيد أن أرى اليوم أن قضيتنا، نحن البلاشفة القدامى، رغم كل الخيانات، لا تزال حية وستظل حية إلى الأبد! وأنتم الذين ستواصلون اليوم هذه الثورة التي بدأناها نحن».

لأول مرة بكيت أمام الجمهور مع أني عادة غير عاطفي. وبعد ذلك بأيام حملت «بابي يار» إلى صديق يعمل في جريدة «ليتيراتورنايا غازيتا» (الجريدة الأدبية). فأسرع من ساعته إلى المكاتب المجاورة وجمع زملاءه وأرغمني على قراءتها بصوت عالٍ ثم قال لي في النهاية:

- من فضلك، أريد نسخة منها.

واحتذى به آخرون فتساءلت:

- كيف تريدون نسخة؟ لقد حملت القصيدة لنشرها في جريدتكم؟

وأخذ الصحافيون الحاضرون ينظرون إلى بعضهم البعض منذهلين كما لو كان طلبي غير معقول ثم قطع أحدهم الصمت صائحًا:

- اللعنة على ستالين هذا! لم يزل جاثمًا على أرواحنا.

وبجرة قلم وقع على أوراق قصيدتي مزكيًا نشرها شخصيًا لكن صديقي نصحني قائلاً:

- لا تذهب فرئيس التحرير لم يقرأها، ولاشك أن تكون له أسئلة يود طرحها عليك.

وبقيت محتجزًا ساعتين في أحد مكاتب التحرير وبين الفينة والأخرى كانت رؤوس فضولية تطل عليَّ من الباب، ثم جاء إليَّ مطبعي عجوز بلباس العمل وشد على يدي قائلاً:

-كل مَن في المطبعة يا بني، قرأ قصيدتك «بابي يار». إنه عمل جيد، أنا، في شبابي كنت ضمن جماعة من العمال الذين وقفوا ضد ذبح اليهود (بوغروم: حركة قامت بها السلطات القيصرية لاستئصال اليهود) لا يمكن لرجل شريف أن يكون مناهضًا للسامية، لقد أتيت لك بالفودكا والخيار المملح من عمال المطبعة. إنهم جميعًا معك.

وفي نهاية المطاف طلبني رئيس التحرير. لم يكن شابًّا ولكن عينيه الريفيتين اللتين خبرتا أشياء كثيرة، كانتا تنظران إليَّ بتعاطف، قال لي ببطء: إن قصيدتك جيدة. كنت أعرف بالتجربة أن حوارًا يبدأ بهذه الجملة لابدَّ أن ينتهي برفض النشر. وأضاف رئيس التحرير قائلاً بهدوء: لقد قلت أشياء صحيحة. وكلما كان يتقدم في تفسيراته المهذبة كان يتأكد لي أنه لن ينشر قصيدتي، ولكن، يا للمفاجأة! انتقل رئيس التحرير من اللهجة الرسمية إلى الحميمية:

- إنني شيوعي.. ينبغي أن تقدر وضعيتي، لا يمكنني أن أرخص لقصيدتك.. ولكن انتظرني هنا..

وخرج، وحوالي الساعة السابعة مساءً، أطلعتني امرأة شابة وجميلة هي رئيسة مهندسي الطباعة، على المسودات الأخيرة لعدد الجريدة، وكان مكان «بابي يار» لا يزال أبيض، ثم قالت:

- لا تقلق فقصيدتك قد نضدت ولا يوجد أي عائق تقني لطبعها، إننا ننتظر فقط الإذن بالسحب من رئيس التحرير لإدراجها في العدد.

واصلت انتظاري إذن وبدت لي الساعات أطول من المعتاد، ولم يعد رئيس التحرير إلى مكتبه إلا في الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، قال لي باسمًا وزوجته واقفة إلى جانبه:

- لقد ذهبت لآتي بها من بيتنا الريفي لأعرف رأيها. إنها معك! ونزلنا جميعًا إلى المطبعة. وبإشارة من يد المرأة، مهندسة الطبع، تحركت آلات السحب، وبعد دقائق حمل إليّ عامل المطبعة العجوز النسخة الأولى من الجريدة منشورة فيها قصيدتي «بابي يار» وقال لي:

- احتفظ بها، فغدًا سيساوي وزنها ذهبًا.

وكان على حق، فقد بيعت «ليتيراتورنايا غازيتا» في ذلك اليوم بسرعة مذهلة. وتلقيت مساء ذلك اليوم عددًا كبيرًا من برقيات التهاني التي كانت في معظمها من مجهولين، ولكن نشر «بابي يار» لم يرض الجميع. بعد يومين نشرت جريدة «الأدب والحياة» قصيدة للشاعر أليكسي ماركوف، كتبها ردًّا على «بابي يار» وصفت فيها «بالقزم الذي يفتري على شعبه». وبعد عدة أيام أيضًا «أظهرت» الجريدة نفسها، في دراسة طويلة، أنني أزرع العداء بين الشعوب وأخون الأممية اللينينية. وكانت هذه الاتهامات العبثية تفضح السعار الشوفيني لأصحابها. وأصبح بريدي ضخمًا. كنت أتلقى رسائل من كل أنحاء البلاد. وذات صباح زارني شابان طويلان، عريضا المنكبين، ولكنهما يبدوان خجولين. قالا لي متلعثمين تقريبًا:

- الرفيق يفتوشينكو، عندما علمنا بتهديدك بسبب قصيدتك «بابي يار» كلفنا الجمع العام لكمسموليي المعهد بحمايتك.

- لكن ممن تريدون حمايتي؟ إنني أتلقى رسائل التهنئة مائة مرة أكثر من رسائل التهديد.

قال ملاكاي الحارسان:

- لا بأس من ذلك، إن شعبنا ذكي ولكننا لم نصل بعد إلى تلك المرحلة التي يختفي فيها كل الأنذال. فلتقبل إذن مساعدتنا.

- وأنتما بوجه خاص هل تهتمان بالشعر؟ هل قرأتما لي قصائد أخرى؟

- في الواقع، لا إلمام لنا بالشعر، إنما اختارنا رفاقنا لأنني أنا بطل في الملاكمة وزميلي في الفريق الوطني للمصارعة الحرة..

ظلا يلازمانني كظلي لعدة أيام، ولكن حمايتهما رغم أنها مؤثرة، كانت عديمة الجدوى تمامًا، كان يجب بالأحرى أن يبعث بالحراس إلى ماركوف الذي كفَّ عن ارتياد الأماكن العامة خوفًا من مواجهة الجمهور.

لقد اعتقدت الصحافة الغربية أنها وجدت في هذه المعركة التي دارت حول قصيدتي «بابي يار» دليلاً على حدة مناهضة السامية في الاتحاد السوفييتي. غير أن دلالتها في نظري كانت على النقيض من ذلك تمامًا. لم يكن من بين ثلاثين ألف رسالة

توصلت بها سوى ثلاثين رسالة فقط جاءت من معادين للسامية!..

في السنة الأخيرة عاشت قصيدة أخرى من قصائدي مغامرات في غاية الصعوبة: «ورثة ستالين». لقد وجد بعض نقادي أنفسهم تحت هذا العنوان فاتهموني بمعاداة الاتحاد السوفييتي. خلال عام كامل وإدارات التحرير ترفض نشرها. ولكن أحدًا لم يستطع منعي من إلقائها في أمسيات شعرية وإذا اتفق أن نسيتها كان جمهوري يذكرني بها، وقد أرسلتها إلى خروتشوف شخصيًّا فنشرت في «البرافدا» ذاتها!.. وإلى خروتشوف أيضًا يرجع الفضل في نشر رواية سولجينيتزن الرائعة: «يوم من حياة إيفان دينيسوفتش» التي يشكل طبعها مرحلة حقيقية في تطور أدبنا.

كان الدوغمائيون عاجزين أكثر فأكثر عن عرقلة إشاعة الديموقراطية في بلادي، ليس لأني مأخوذ بنشوة الأوهام المتفائلة، أعرف أن مهمتنا شاقة ومحفوفة بالعراقيل، إذ نجح الجيل القديم من الدوغمائيين في تكوين بديل له من الشباب، يمكن أن يكون خطيرًا، وأعرف أن هناك عوائق تحول دون تطور فننا، وأعرف أننا نتحمل عواقب التطور المعقد للوضع السياسي والاقتصادي العالمي. لا أغض الطرف عن كل ذلك. ولكن أظن أنه ينبغي أن يكون المرء أعمى لكي لا يرى

التغييرات الهائلة التي حدثت في بلادنا منذ وفاة ستالين. إننا نعيش منذ 1953 ثورة روحية حقيقية معقدة تتطلب الكثير من الصبر والجهد. إن الأقلية الدوجمائية، القديمة أو الجديدة، لا تستطيع شيئًا ضد هذه السيرورة؛ لأن معظم السوفييت، خاصة الشباب، متعلقون بأفكار التقدم وعازمون على النضال في سبيلها حتى تنتصر.

أحيانًا يستغرب الغربيون عندما يسمعوننا نتحدث كثيرًا عن ماضينا، ولكن استحضار الماضي بالنسبة إلينا معناه التفكير في مستقبلنا، إننا نريد أن نحمل معنا كل ما هو جيد في إرثنا وأن ندع للماضي ما للماضي.

لقد ارتكبنا الكثير من الأخطاء. لكننا كنا البلد الأول على طريق تحقيق الفكرة الاشتراكية، وربما ارتكبناها حتى لا تضطر البلدان الأخرى التي ستنهج الطريق نفسه إلى ارتكابها من جديد. في باريس قال لي طالب ليس من خيرة أحفاد الثورة الفرنسية: «أنا، على العموم، مع الاشتراكية، ولكنني أفضل انتظار اليوم الذي تصبح فيه لديكم مخازن كبرى مثل «لافاييط» لكي أناضل من أجل الاشتراكية».

أشعر بالخجل نيابة عن هذا الشاب العجوز. إنه ينتظر أن يحمل إليه المستقبل على طبق من فضة، كدجاجة مشوية ومحمرة، وعندئذٍ فقط سيتكرم باستعمال الشوكة والسكين.

نحن السوفييت صنعنا مستقبلنا وحدنا، حرمنا أنفسنا من كل شيء، عانينا، ارتكبنا أخطاء، ولكننا رغم كل شيء وحدنا صنعناه.

وأنا فخور لأنني لست مجرد ملاحظ بل أساهم في نضال شعبي البطولي من أجل مستقبله.

وأظن أن كل شيء أمامي كما أن كل شيء أمام شعبي!..

الصفحة

- تقديم المترجم: انهيار جبل الجليد 5
1- العمق الرمادي 21
2- صمت البحر 27
3- أعراس 37
4- منذ ذلك اليوم 45
5- ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان 53
6- في مدرسة الحياة الشاقة 71
7- كرة القدم والشعر 87
8- القاطرة المبذرة بخارها في الصفير لا تذهب بعيدًا 99
9- في عصرنا لا يكفي أن تكون شاعرًا فقط 117
10- دموع الخوف على المستقبل 129

الصفحة

11 - رايتنا نقية ولو أنها بين أيدٍ قذرة 137
12 - الربيع الجليدي 151
13 - اكتب الحقيقة فقط يا بني 161

إصدارات للمترجم

في الترجمة:

- العمق الرمادي - سيرة ذاتية للشاعر الروسي يفتوشينكو - ترجمة وتقديم- عن دار أزمنة، عمان، الأردن (2005).
- أزهار من بستان الشعر العالمي - ترجمة- عن منشورات بيت الشعر في المغرب (2010).
- التراجيديات الصغيرة - بوشكين، ترجمة ومقدمة عن أعماله الدرامية الكاملة. دار التكوين دمشق- سوريا (2011).
- مذكرات من البيت الميت - دوستويفسكي، ترجمة وتقديم، عن المركز الثقافي العربي (2014).

في الشعر:

- الأعمال الشعرية الكاملة: في جزءين عن وزارة الثقافة (2009).
- مغارة الريح (2001) - جائزة المغرب في الإبداع الشعري.
- نشيد السمندل: عن مؤسسة شرق- غرب- بغداد (2009).
- تانّيرتْ «ألواح أمازيغية» (2005) عن المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.
- أشعار للناس الطيبين (1967) ديوان مشترك.
- في مدار الشمس رغم النفي (1974).
- في ضيافة الحريق (1994).
- زهرة الثلج (1998) عن دار الثقافة.

- حدادًا عليَّ (2000) عن دار الثقافة وبدعم من وزارة الثقافة.
- بملء الصوت (2005).
- بعيدًا عن كثب (2007) عن دار الثقافة.
- قيثارة القصب ويليه أزهار أولى (2011) عن دار الثقافة.

في النقد:

- سنديانة الشعراء - قراءات وشهادات- (2003) عن دار الثقافة.

في كتب جماعية:

- «أحمد المجاطي، شاعر المغرب» عن منشورات الرابطة بالرباط.
- «ديوان الحي» عن جمعية الدار البيضاء - كريان سنطرال - فرع الحي المحمدي (2009).
- «محمد بنطلحة، شاعر الأعالي» مقاربات نقدية، إعداد عزيز الحالكم، فاس، منشورات نادي الكتاب (2010).
- متاهة تحت العين، مقاربات نقدية لتجربة الشاعر محمد بنطلحة، تنسيق محمد الداهي، منشورات وزارة الثقافة، سلسلة ندوات (2011).
- المنازل الأولى/ شهادات أدباء مغاربة حول كتبهم الأولى/ منشورات وزارة الثقافة (2012).

في السرد:

- فتاة الثلج، محكيات/ منشورات اتحاد كتاب المغرب (2011).

"اتجهت إليّ أنظار كلّ الذين كانوا في الحجرة، كانوا يبتسمون. وخيّل إليّ أنّهم يستهزئون بي. فاغرورقت عيناي بالدّموع. ولمّا أحسّ دوستال باضطرابي، ربت على كتفي بود وأجلسني ثم حدّثني عن كراسة أشعاري. وفيما بعد أصبحنا صديقين. لم يكن شاعرًا كبيرًا. ولكنّه كان يحبّ الشعر. وقد نقل إليّ الآمال التي لم يستطع تحقيقها هو نفسه. على العموم، لقد ساعدني، خلال حياتي الشعريّة، شعراء متواضعون. وهؤلاء دائمًا أكثر عناية، وحنانًا تجاه الشعراء المبتدئين من الشعراء الكبار. ومع ذلك لم يستطع دوستال نشر أشعاري الأولى. في هذه المرحلة، كان "ماوتان إيدن" كتابي المفضّل. كانت صفحاته الأولى بالنسبة إليّ مصدر عون وإلهام. وفي الوقت الحاضر تعجبني أكثر صفحاته الأخيرة. لكن هذا الكلام سابق لأوانه."

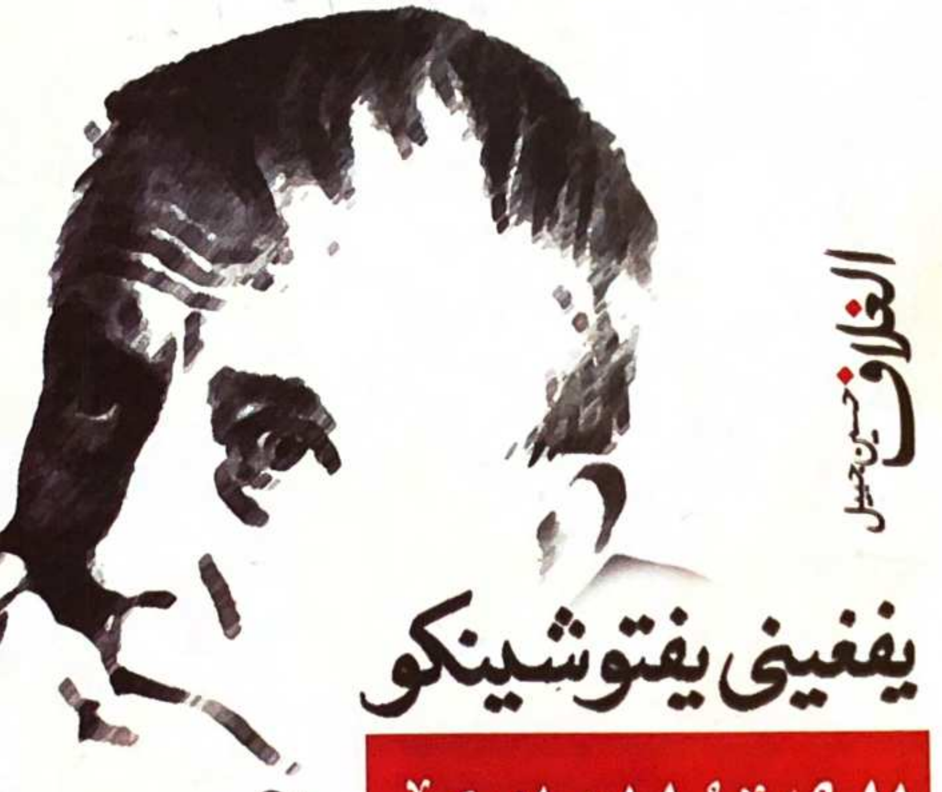

الغلاف حسين جميل

يفغيني يفتوشينكو

العمق الرمادي

سيرة ذاتية مبكرة

9 789774 991851